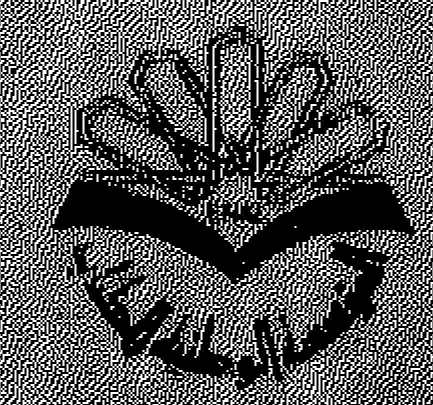
د : عبد الله ركيبي

عروبة الفكر والثقافة أولا..

المؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر 1986



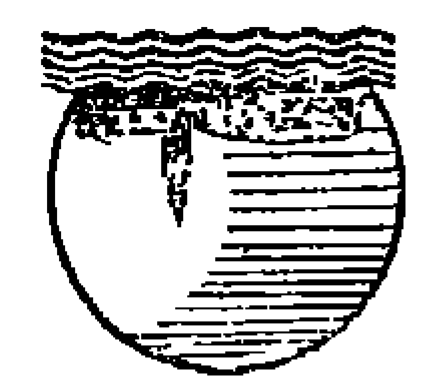
عروبة الفكر والثقافة اولا

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

د. عبد الله ركيبي



عروبـــة
الفكر والثقافة
اولا..

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 شارع زيروت يوسف
— الجزائر —

رقم النشر 85/1931

الجزائر ، 1986

رقم النشر 85/1931
© المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر ، 1986

مقـــــــــــدمـــة

من المـؤسف حقـاً اننـا في الوطن العربي لانفكر عربياً ، فتفكيرنا في كافة القضـــايـــا ، أو معظمهـــا يوشـــك ان يكـــون « مستـــورداً » جاءنـا من الغـير ، وتبنينـاه نحن بلا فهم أو تمحيص أو تدقيق ووضعنـاه في رؤ وسنـا وحـاولنـا صبغـه بصبغتنا ، فلا هو تفكيرنا ولا نابع منا . . . ولعل هذا هو السبب فيما نعانيه في بيئتنا العربية من اضطراب في الفكر والسلوك معاً . . ولعله السبب في هذا الضبـاب الـذي يغلف افكـارنـا ومفاهيمنا وتصورنا للقضـايـا المختلفـة ولاسيـما الجـوهرية منها مما يجعل البت فيها بحسم من الصعوبة بمكان .

ويـداهـة ان هذه الظاهرة سببها الاستلاب الفكري الذي ادى بنا بطـول الـزمن الى الانفصام في حياتنا بين القول والفعل ، والى التناقض في المـواقف بل والتنكـر احيـانـاً للقـرارات التي نتخذها عن أقتناع أو عدم أقتنـاع ، كما ادى بنـا الى عدم وضـوح الهـدف . . وحـين لاتكـون الاهـداف واضحـة فأن التفكـير نفسه مثل المناهج والطرق يصيبها جميعاً الاضطراب والتخلخل .

والـواقـع ان تراكم الاحـداث ماضيـاً وحـاضراً وسلسلة التجارب المريرة والمحن القاسية التي مرت بها امتنا العربية في تاريخها الطويل نتيجة الـتـخلف والهيمنـة الاجنبيـة ، أوجـد هذا الاضطـراب والضعف في تفكـيرنـا ، بحيث يصـدق علينا رأي « أبن خلدون » في تقليد الضعيف للقوي ، والتقليد كما يمس المظهر يمس التفكير نفسه ؛ لذلك نجد الفرد العـربي يتشبـه بالأجنبي في مظهره وسلوكه بل وفي تفكيره حتى يثبت انه منسجم مع عصـره وزمـانـه في حين انـه في الواقع غير منسجم مع ذاته أو مجتمعه أو تاريخه أو حضارته .

ومما لاشـك فيـه ان عدم التفكـير عربيـاً صبـغ ثقـافتنا في السنين الاخـيرة بصبغـة مضطـربـة ضائعـة ، فهي أيضاً تتلمس طريقها وتحاول التجريب دون وضوح في الرؤ ية وفي الهدف ، لأن أية ثقافة تعكس فكر

أصحابها ، وثقافتنا القومية دخلت في تجارب مختلفة وانصهرت فيها أفكار كثيرة بعضها يلائمنا وبعضها الاخر لايتفق معنا ، ومن ثمة وجدنا انفسنا حيال فيض من المعارف ووفرة في التجارب وتنوع في الاساليب والمناهج والأيديولوجيات فأحترنا ماذا نأخذ وماذا ندع ؟!!.

★★★

واذا كان الغزو الفكري والاستلاب الثقافي قد امتدا على مساحة وطننا العربي كله تقريباً منذ أن وضعت الحرب العالمية أوزارها ، فإنه في الجزائر بالذات قد بدأ منذ بداية الغزو الفرنسي في النصف الاول من القرن الماضي ، واستمر طوال فترة الاحتلال . ولكن مع بروز المقاومة الشعبية ـ قبيل الثورة ـ ومقاومة المثقفين والمفكرين والادباء الجزائريين ثم انطلاق ثورة نوفمبر المظفرة ، أنحسر هذا الغزو الفكري انحساراً واضحاً . . ولكنه سرعان ماشتد بعد الاستقلال وقويت شوكته ؛ ذلك ان الاستعمار بعد أن خرج بجنوده أراد ان يبقي فكره وتبقى ثقافته وآراءه . ولا نغالي إذا قلنا إن هذه ظاهرة عامة في كافة البلدان التي ابتليت بالاستعمار في العصر الحديث ، لكنها في الجزائر والمغرب العربي عامة ، اتخذت طابعاً منظماً مدروساً تسنده جهات رسمية تخططوتعمل له بدأب لابقاء الفكر والثقافة الاجنبيتين بدعوى التفتح والمعاصرة ، وما إلى ذلك من الصيغ التي تحمل في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب . . . . . !

ولقد صمدت الجزائر لهذا كله وعملت وما زالت تعمل لتتحرر فكراً وثقافة وتعيد الاصالة الفكرية والثقافة لتاريخنا وحضارتنا العربية والاسلامية ، وتواجه هذا الغزو الثقافي لانها تعي ان هذا هو الطريق الصحيح لتأكيد الهوية الوطنية والانتماء القومي .

. . . وهذه المجموعة من المقالات والدراسات كتبت في هذا النطاق ، وفي هذا الاتجاه ، وبالرغم من أنها كتبت على فترات متقطعة ومنذ بضعة سنوات فأن القضايا التي عالجتها بعد استقلال الجزائر سواء منها ما يتصل بالفكر والتعريب أو بالوحدة العربية أو الثقافة فإنها مازالت حية متجددة ليس في الجزائر وحدها ولكن في بقية الاقطار العربية الاخرى

فمعركة التعريب في الجزائر مثل معركة العروبة والثقافة الوطنية مازالت متواصلة وما زال بعض الناس ينظرون بحذر إلى قضية التعريب وبالتالي إلى مفهوم الثقافة ومفهوم العروبة ؛ لأن الفكر والثقافة لاينفصلان كما لاتنفصل عنهما الوحدة والعروبة فكلها قضايا مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً عضوياً وثيقاً .

وبعيد عن الافكار المسبقة فإن الاقتناع بوحدة هذه القضايا يبقى هو الطريق السليم وهو المنقذ من التأرجح والاضطراب والانفصام بين الشخصية الوطنية والقومية وبين النظر والعمل وما إلى ذلك .

وليس معنى عروبة الفكر وتعريبه أن نرفض كل ما انتجه غيرنا ، بل معناه أن يكون لنا رأي فيما هو مطروح من فكر وثقافة ونضعه في المحك الخاص بنا فما لاءم فكرنا ومنهجنا العربي وحضارتنا العربية الاسلامية نأخذه ونستفيد منه ، وما تعارض مع فكرنا وتاريخنا وحياتنا ومصلحتنا نرفضه حتى لانستمر في هذه الازمة الفكرية الخانقة التي يعيشها ويعاني منها المثقف العربي . لأنه لايفكر بنفسه ولنفسه بل يفكر بغيره !!

ولكي نكون « نحن لاغيرنا » ؟ ولكي تتبلور أمام العالم شخصيتنا الذاتية القومية عن سواها . . يجب أن يمسّ التعريب كل شيء في حياتنا »

ـ وبهذا المفهوم الذي يعني الاصالة الكاملة والروح القومية والتفتح على العصر والعالم في آن واحد ـ أقول يجب أن يمسّ كل جوانب حياتنا العربية بدءً بالفكر وانتهاءً الى الشئون اليومية المعاشة . وإذا كانت هذه القضية ساخنة في الجزائر حتى كتابة هذه السطور فليس معنى هذا أن ينظر إليها باعتبارها تهم الجزائر وحدها أو بعض الأقطار العربية ، بل تهم الامة كلها والوطن العربي كله ايضاً .

ويبقى في نهاية المطاف رأي في هذه القضية الحيوية الهامة أضيفه إلى الآراء التي تضمنتها هذه الصفحات وهو أن التعريب وعلى نطاق الوطن العربي ينبغي أن يصبح قراراً « سياسياً » تصدره السلطة السياسية لا أن يظل مسؤولية المثقفين وحدهم .

* د . عبدالله ركيبي *

دمشـــــق 1/9/ 1983

تعريب الفكر اولاً

لاأشـك مطلقـاً في أن ما أسـوقه في هذا الحديث من آراء وأفكار ، ومـا أعـرض فيـه لقضيـة خطـيرة ناقشهـا الكتـاب وأخذت من الاهتمام مالايدانيه سوى الحديث عن حرية الشعب واستقلاله ، قلت لاأشك في أن ماأقوله عن التعريب سيثير سخط أناس ان لم أقل غضبهم وثورتهم . لانهم تعودوا على المألوف من القول والعادي من الامور ، بل ألفوا الرتابة في حيـاتنـا الثقـافيـة وألفوا أن يؤمن على كل ما يفعلون ويمدحون على الصواب والخطأحتى في القضايا المصيرية التي تمس واقع الشعب ومصيره على السواء .

وحـين يسعى بعصـا لتنبيـه بعض العقـول التي آلفت الخمول والركود ، يسارع أصحابها إلى رمي الحجارة في وجوه الذين يسعون جادين مخلصين الى إثـارة القضـايـا ومناقشتها بموضوعية ونزاهة . وهذا التفكير المتحجر الجامد هو سبب المأساة التي نحسها في حياتنا الثقافية والأدبية .

ورغم ماألفنـاه من رد فعـل هذه الفئـة ومن عقليتهـا ومن تصرفاتها التي عانينا منها وما زلنا ، رغم ذلك ، فاننا لن نبحث عن رضائها ولا عن سخطها أو أثارتها ، فنحن لانصدر فيما نكتب أونقول سوى عن مسؤولية وصدق فيما نعتقد وإيمان بما نقول دون هدف آخر .

والواقع أن التعريب تعرض لضغوط كما تعرض لاستغلال عجيب . فهنـــاك من رفـع شعـاراً لتحقيق مآرب خاصـة ومصـالـح آنيـة ثم لاذ بالصمت ، وهنـاك من لايـزال يرفـع شعارهطمعاً في أمور يرجو تحقيقها في المستقبل ، ولكن هناك من دافع عنه كقضية قومية مثل القضايا الوطنية لا لمرحلة من المراحل .

ويمكن أن نلمس هذه المـواقـف المختلفـة في كثير من القضايا مثل الاشـتراكيـة ، فالبعض نادى بها بوصفهـا حلا لمشـاكـل الشعب وتحقيقاً للعدالة وحين تحقق له المسكن المريح سكت ، ولكن الاشتراكي الحقيقي

ما فتيء يطالب بها وينادي بشمولها سواء عن طريق الثورة الزراعية أوعن غيرها . ويمكن أن نسوق أمثلة من قضايا كثيرة ومن مواقف مختلفة لو أن المجال يسمح بذلك .

على أنه فيما يتعلق بالتعريب فان المرء مطالب بأن يعرض لتطوره لامن حيث الاحصائيات أومن حيث تقديم الحلول ، فقد سبق لي في مكان آخر أن بينت رأيي بوضوح في هذا الأمر ، ولكنني هنا فقط أود أن أقدّم بعض الملاحظات بعد سنوات مرت على الاستقلال وعلى الثورة ثم مرت على البداية في تحقيق التعريب .

والظاهرة التي تلفت النظر في وضعية التعريب في بلادنا ، هي أن التعريب مر بمرحلتين واضحتين منذ الاستقلال حتى الآن ، مرحلة الستينات ومرحلة السبعينات ، فالأولى كانت دفاعاً عن التعريب وعن اللغة العربية بوصفها احدى الاختيارات الوطنية ، التي لارجوع فيها وأن التعريب من المقومات الاساسية للشخصية القومية .

ومن هنا نشأ ذلك الصراع الطويل بين من يؤمنون بالتعريب وبين من يقفون ضده ، وكان صراعاً سافراً بارزاً للعيان . فقد كان خصوم التعريب يحاربونه في وضح النهار ويقفون ضده بالقول والفعل معاً ، ويبذلون جهدهم لعرقلته في شتى المجالات وبشتى الوسائل . كما تعرض أنصاره إلى حرب نفسية قاسية والى ضغط شديد وصل إلى القدح في ثقافتهم وكفائتهم فوق الدعاية المغرضة التي تتهم الثقافة العربية بالجمود والتأخر ، فكانت المقارنة باستمرار بين اللغة العربية وبين اللغات الأجنبية ، والهدف هو الوصول الى نتيجة معينة وهي أن اللغة العربية قاصرة عن أن تستوعب ما تنتجه الحضارة الحديثة وبالتالي فهي لغة لاتصلح للعصر ، واذا فلا بد من بقاء اللغة الأجنبية واستمرارها . بل وصل الأمر إلى الارهاب الفكري أيضاً دفاعاً عن اللغة الاجنبية واضطهاداً لمن يدافع عن اللغة القومية من بعض العناصر المتعصبة للغة الأجنبية

هذا مجمل ما كان يجري في المرحلة السابقة . أما المرحلة الجديدة بالنسبة للتعريب . فانها تختلف عن الاولى في الملامح والسمات

الظاهرة ، ولكنها تتفق معها في النتيجة . ذلك أن التعريب في السبعينات أصبح مقنناً فقد سنت من أجله القوانين وصدرت في حقه القرارات الحكومية وأصبح بحكم التشريع وبحكم القانون أمراً مقرراً لاخلاف حوله . فماذا كان رد فعل خصومه ؟

لقد لجأوا إلى طرق جديدة ، طرق ملتوية يفسرون بها النصوص القانونية حسب أهوائهم . ودخل التعريب في مرحلة المناورة بدل المبادرة وتنفيذ القانون . فما دام القانون يسنده فان الوقوف في وجهه جهاراً نهاراً ، قد يعرض من يفعل ذلك إلى المتابعة القانونية والشعبية ، فتغير التكتيك ، وتغير الأسلوب ، وأصبح الشعار في الظاهر هو : ((كلنا مع التعريب وكلنا مع اللغة القومية)) ولكن الحقيقة أن مقاومة التعريب استمرت كما كانت في السابق تحت صور متعددة ، تغيرت الأصباغ ولكن الجوهر لم يتغير ، فما زالت النظرة كما هي بل أشد مما كانت عليه في السابق . فالعراقيل التي توضع أمام التعريب اليوم أشد عليه من الفترة الماضية ، فهي عراقيل مدروسة بعناية كبيرة من بعض خصومه فقد أفرغوا القانون من محتواه ، اشترطوا للتوظيف مستوى وللترسيم والتثبيت ولكن حين جاء التطبيق تدخلت الاعتبارات الخاصة والنوايا المبيتة والافكار المسبقة ، فوجدنا ممن لايستطيع كتابة جملة بالعربية مرسما في وظيفته . وبذلك استغلوا القانون كما استغلوا الفراغ الذي سببه عدم المراقبة الصارمة على تنفيذ النصوص . وظن أصحاب النية الطيبة أن القانون وحده يكفي لردع المغرضين وإذا بالتعريب يتعثر بحيث لم يدخل قطاعات كثيرة كان المفروض أن يدخلها ، لم يدخل حتى المجالات البسيطة التي تعبر عنها العامية فضلاً عن العربية الفصيحة المعربة ، والا فكيف نفسر عدم تعريب أمور لاتتطلب ثقافة أو تعمقاً في اللغة في مستويات كثيرة ابتداء من البلديات مرورا بالحزب حتى المؤسسات الاخرى حسب السلم الاداري .

وما قيمة الامتحانات التي عقدت للعربية وما أثرها في التعريب لقد اتهم أنصار التعريب دائماً بالحماس وعدم الواقعية في نظرتهم لهذا الموضوع وسكت المعربون الا القليل ، واعتبروا أن القانون سيضع جداً

للمناورات ضد التعريب ولكن الواقع يؤكد أن أعداء التعريب يتظاهرون بالعمل له بينما هم في واقع الامر يحاربونه بشدة ، وبذلك سدوا الطريق أمام أنصار التعريب ، بل وسبقوهم الى الدفاع عنه في المناسبات ، وهذا الاسلوب الذكي يدل على أن الأفكار قد تلبس قفازاً ناعماً ولكنها تبقى كامنة حتى تأتي الفرصة الملائمة للظهور ، وهذا ما يسمى بالاحتراف . والحقيقة التي لابد أن نسجلها أن خصوم التعريب ليسوا في درجة واحدة من رفضه ومقاومته . فهناك من يقف ضده بحسن نية أو بسذاجة وعدم فهم ، بل وبايمان بأن التعريب قد يؤخر البلاد . وهذا الصنف من خصوم التعريب من الممكن اقناعه بالحجة وبالتجربة والواقع . بل من واجب المؤمنين بالتعريب أن يفتحوا نقاشاً هادئاً متزناً مع الذين لاتحركهم عقد أو مركبات خاصة تجاه التعريب ، إنما ينقصهم فقط الفهم وإدراك الحقيقة .

ولكن الصعوبة التي تواجه التعريب فعلاً هي تلك العقلية التي رسخت في أذهان الصنف الآخر الذي يقف ضذ التعريب ويرفضه رفضاً باتاً بدافع العداوة المبنية على سوء النية وعلى الفكرة المسبقة التي أشرت إليها في بداية هذا الحديث . وهؤلاء لابد أن يتجردوا من أنيابهم التي يمزقون بها اللغة الوطنية . ان اسناد الوظائف لهم واعطائهم الحرية المطلقة في أن يتصرفوا كما يشاؤون في قضايا تمس مستقبل الوطن ومستقبل الاجيال . ان هذا سيكلفنا الشيء الكثير ، قد لاندركه اليوم ، لاننا نعيش الاحداث اليومية بحكم العادة وعدم التنبه للتاريخ ، ولكن سيأتي اليوم الذي يحكم فيه غيرنا علينا وعنئذ ستظهر الحقيقة المرة .

هذا الحكم ليس من وحي النظرة التشاؤمية أو الحساسية المفرطة تجاه قضية مبدئية مصيرية . ولكنه حكم مبني على الملاحظة والتجربة المعاشة . ولكن بعضنا يلاحظ ويسكت وبعضنا يفضل قول الحقيقة ولو كان مراً .

وهنا يمكن أن نتساءل : لماذا يسير التعريب ببطء ويتعثر باستمرار ؟

ان الجواب عن هذا السؤال يحمله عنوان المقال . فالمشكلة في تصوري هى أننا نظرنا إلى التعريب نظرة لغوية بحتة ، ونسينا الجوهر الاساسي في

الموضوع ، فالتعريب اللغوي لايكفي ، لان من يقرأ بالعربية أويكتب بها قد يلتقي مع أي أجنبي يحسن العربية ، يلتقي مع المستشرق الذي يتقن العربية مثل أهلها وربما أكثر منهم ، ويلتقي مع من يتعلم لغة أجنبية بغرض التعامل مع أصحابها . في حين أن التفكير هو المهم في الموضوع فربما وجدنا مواطنا لايحسن العربية ومع هذا يدافع عن العربية والعروبة أكثر من بعض الذين يتقنون العربية .

ولو كان خصوم التعريب يحملون ولاء للتفكير العربي لما وقفوا ضده ، فمثلاً نجد الشاعر مالك حداد لايعرف العربية بتاتاً ومع هذا فهو يؤمن باللغة القومية وله ولاء كامل للامة العربية ولمصيرها الواحد .

فالذين ينظرون للتعريب نظرة لغوية . يجردونه من مضمونه ، من حقيقته ، ويسعون في الوقت نفسه الى تكريس الاقليمية ، ويعملون لاستمرار التجزئة والتشتت وابقاء الامة العربية جسداً بلا روح .
فالوحدة لاتتم مع الاقليمية ولا مع التعريب اللغوي ، وانما تتم مع التجانس الفكري ، مع التوافق ، مع تعريب التفكير

وأظن أن تقسيم المثقفين الجزائريين إلى ((معربين ومفرنسين)) ، انطلق من مفهوم لغوي ومن نظرة سطحية أو مقصودة مغرضة . فالتسمية عملياً ووطنياً وقومياً غير مفهومة وغير دقيقة وغير سليمة ، بل وغير مقبولة ، أو مبررة .

فمن غير المقبول إطلاقاً أن نستخدم مصطلحات - مثل هذين المصطلحين - دون أن نفكر في مدلولها سوى الفهم السطحي الساذج . أو أننا نستخدمها من منطلق النظرة اللغوية وبالتالي نجرد التعريب كما قلت من محتواه الصحيح ونحصره في زاوية ضيقة بحيث لايعبر عن قيم معينة أو تقاليد راسخة أو جذور عميقة في تاريخنا ؟ .

قد يقال هذه أمور شكلية ، ولكن الشكليات أحياناً قد تحدث البلبلة في الاذهان والنفوس لان تحديد الاشياء يعطيها مدلولها الحقيقي . فالغموض يحدث الفوضى ويترك المجال للاجتهادات الخاصة والتفسيرات المختلفة ، خاصة في القضايا الجوهرية ذلك أن تناقض

المفاهيم ينشأ من تناقض التعبير وتضارب المصطلحات في شتى المجالات فوضوح الرأي من وضوح الفكرة ووضوح التعبير .

فمشكلة الانسان مشكلة التعبير باستمرار ، فاللغة هي الانسان بمعنى أو آخر . واعتقد ، أنني حين أقول : قل لي بأية لغة تتكلم أقل لك من أنت ؟ أعتقد أن هذه المقولة صحيحة ، فاللغة بهذا المعنى التفكير والتعبير معا . لان لكل لغة خصائصها ومميزاتها التي تجسد بها تفكير أهلها والناطقين بها ، بهذا المعنى تعتبر اللغة مقوماً أساسياً لشعب من الشعوب بل هي التي تعطيه طابعاً خاصاً يميزه عن غيره .

وفي تصوري ، فان ما عرضت له من آراء خاصة بالتعريب وبالرغم مما أحسه من فجوة عميقة مازالت تفصلنا عن االتعريب الحقيقي ، فان الامل يبقى دائماً في الجيل القادم الذي عاش ظروفاً تاريخية لم يتلوث فيها بأفكار قديمة ورواسب استعمارية ولم يخضع لمركبات نفسية خاصة ، فهذا الجيل هو الذي يمكن أن يحقق التعريب اللغوي والفكري إذا خططنا له تخطيطاً سليماً وهيأنا له المناخ الملائم . أما إذا تركنا الامر للزمن وحده فانه لن يحل المشكلة فلا بد من رقابة يقظة مستمرة ، ولابد من تفكير في سبل جديدة لتحقيق المزيد من النجاح .

واذا كنا ننشيء مجالس شعبية للرقابة والتوجيه والتسيير ومصالح مختلفة تسهر على تحقيق أهداف الثورة ، فلماذا لاننشيء مجلساً يتابع ما أنجز من تعريب ، ويساعد على بلوغ الغايات والاهداف ويعمل على استمرار التعريب الكامل الشامل . لقد فعل هذا أناس لم تتعرض لغتهم لمثل ماتعرضت له لغتنا من حصار وضغط من قبل الاستعمار الفرنسي . وعانت الكثير من أعدائها وخصومها وربما حتى من بعض انصارها الذين ألقوا المسؤولية على غيرهم لسبب أو لآخر .

وهم مسؤولون عن التمهيد للثورة الثقافية التي سيكون التعريب من بين أهدافها وهي آتية لاريب في ذلك سواء طال الزمان أوقصر . لانها ستغير من مفاهيم كثيرة وستصلح أخطاء عديدة تحدد مقاييس جديدة للثقافة والفكر والتقدم .

■ ■ ■

ربما يفاجأ بعض الناس بهذا الحديث ، وربما يتساءل آخرون عن تجربة التعريب اثناء الثورة وعن أثرها في تجربتها اليوم .

ولكن الحقيقة أننا أحياناً قد لانهتم بالاحداث اليومية ولانشعر بها بعمق شعورنا بها بعد التأمل والتفكير ، بل ربما لاتجد الاهتمام القوى حتى بعد أن يمر عليها وقت طويل وتصبح تجربة خصبة يمكن أن تساعد على حل مشاكل كثيرة أو تسهم في إغناء التجارب الجديدة .

ومن هذه التجارب التي لم تناقش كما ينبغي أولعلها لم تناقش أصلاً هي تجربة التعريب اثناء الثورة ، ولعل في هذه المناسبة التي نحتفل بها بمرور عشرين سنة على ثورة نوفمبر المجيدة ، لعل الاجدى أن نعود بأفكارنا الى تجارب الثورة المختلفة لننظر فيها ونحللها وندرسها ونستخلص منها النتائج :

والحقيقة الثانية التي نسجلها ، وقد أشرت إليها في مناسبات أخرى من أننا في معظم الاحيان ننظر للثورة من خلال معاركها الكبرى وخاصة ما يتصل بالتحرير السياسي ومن خلال التغيير الذي أحدثته في المجتمع في مجالات كثيرة ، ولكن في نظرة مجملة وبأسلوب إنشائي ونفس هذا التغيير فيما يخص التعليم والتعريب والفكر بصورة عامة . ونطلق أحكاماً عامة بلا شواهد أو أمثلة تساعدنا على فهم الواقع ومعطياته أو الماضي وآثاره وتأثيره في الحاضر .

على أنه من الضروري قبل الحديث عن تجربة التعريب أثناء الثورة ، أن نشير بإيجاز الى هذه التجربة قبلها حتى نقارن بين فترة وأخرى ، هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فان الملاحظة تمكننا من إدراك الاضافة التي تحققت بفضل الثورة دون الاغراق في إبراز العواطف والتسابق نحو بلاغة التعبير وإظهار الفروسية اللفظية إن جاز القول .

إن تجربة التعريب قبل الثورة ، تعد تجربة رائدة بلاشك في التعليم والادارة والثقافة بشكل عام . والفضل فيها يرجع إلى ((الحركة

الاصـلاحيـة)) والى ((الحركة الوطنية الجادة)) . وبدقة يرجع الفضل في هذا الى جهود القوميين سواء بالمفهوم الوطني المحلي أو بالمفهوم العربي الاسلامي .

فالتعليم القـومي الـذي اعتمـد على الجهـود الـوطنيـة واستهدف التعـريب اسـاساً له سواء في المدرسة من حيث المواد أو المناهج أو سواء في التسيير الاداري لهذه المؤسسات التي انشأها الشعب بطموحه الخاص أو بوسائله الخاصة التي أتاحت له ان يعوض الحرمان الذي كان يعاني منه في هذا المجال .

ولاشـك ان الـذي عاش فترة ماقبل الثورة يدرك ان التعريب كان قد قطع شوطاً بعيدا وفرض نفسه على الواقع الوطني ، واعتمد في انجازه على الانسان الجزائري ، فكراً وتخطيطاً وتطبيقاً ، وأصبح حقيقة نسلم بها حتى أعـداء الشعب الـذين حاربوه بضـراوة شديـدة ، ووضعـوا أمـامـه العـوائق والصعـوبـات الكثـيرة خشيـة تأثيره في نفوس الجماهير . ورغم الحـرب الطـويلة التي شنهـا الاستعـمار على العربية والمعربين ، اصبح في الجـزائـر تعليم عربي وطني يشرف عليه جزائريون توجيهاً وتنفيذاً ، وقف أمـام التعليم الفـرنسي الصـرف الـذي كان يهدف الى تجريـد الفـرد الجزائري من انتمائه ومن شخصيته .

ولقـد لعبت البعثـات الى تونس والمغـرب ثم الى البـلاد العـربية الأخـرى ، لعبت دوراً بارزاً في الاصـرار على متابعة هذه التجربة الوطنية وتحقيق التعريب بشتى الوسائل وتحت الظروف القاسية . ويندر ان نجد تجربـة مماثلة حققت النجـاح الـذي حققتـه هذه التجـربـة الرائدة التي لم تتبنـاهـا حكـومـات رسميـة وانـما اعتمدت ـ كما أشرت ، على الجماهير الشعبية العريضة وعلى العناصر الحية في الشعب الجزائري ، خاصة إذا لاحظنـا الـوضـع الذي كانت عليه الجزائر قبل الثورة ، وقارناه بالاوضاع التي كانت عليها البلاد العربية في تلك الفترة ، وهي أوضاع كان التعليم العربي فيها يتمتع بقدر من الانتشار نتيجة استمرار اللغة العربية وبقائها لغة التعليم وفي الادارة رغم ما يقال عن جمود اللغة وتخلفها .

اما في الجزائر فان العربية قبل النهضة الحديثة ، كانت تعيش منفية في بعض ((المحاكم الشرعية)) أو في بعض ((الأوراق الخاصة)) بالاحواز الممتزجة أو في الادارة التابعة لمراكز ((القياد والباشغوات)) ، وهي عربية أشبه بالعجمة في أسلوبها وروحها ، دعك من التعليم العربي الرسمي فهو لم يختلف في روحه وأسلوبه عن التعليم في بعض المراكز النائية البعيدة عن العمران وان حافظت هذه المراكز القديمة على بقايا الثقافة العربية الاسلامية .

ويبقى ان نشير الى ان التعريب في التعليم والادارة تحت اشراف الحركة الاصلاحية والوطنية قد توقف في بداية الثورة تقريباً ، فالمدارس التي كانت تابعة لحزب الشعب اغلقت في السنة الأولى لاندلاع الثورة على وجه التقريب اما مدارس جمعية العلماء فقد استمر بعضها سنوات بعد ذلك وان أغلق معظمها ابتداء من سنة 1956

بيد أن هذه التجربة الخاصة بالتعريب انتقلت للثورة بل تواصلت أثناءها على مستويات مختلفة بأساليب مختلفة وفي ميادين ثلاثة ، في التعليم ، في الادارة ، وفي التوجيه والاعلام .

وفيما يتعلق بالجانب الاول ، فان الثورة انشأت مدارس في الجبال والقرى والمدارس التي كان يشرف عليها جيش وجبهة التحرير الوطني ولم تستطع السلطة العسكرية الفرنسية أن تسيطر عليها ، فقد أهتمت الثورة بمعلمي القرآن وشجعتهم على مواصلة رسالتهم ورصدت لهم مساعدات ومكافآت مادية ، وقد استمرت هذه ((الكتاتيب)) في تأدية عملها كما كانت في القديم ، من تعليم الصبيان القرآن الكريم ومبادىء اللغة العربية وبعض الاناشيد الوطنية . وقد حفظت هذه المراكز للغة العربية بقاءها واستمرارها خاصة في البوادي التي لم تنشأ بها مدارس وطنية شعبية أومدارس فرنسية ، كما اهتمت الثورة بالمدارس الوطنية التي لم تغلقها الادارة الفرنسية في بداية الامر . بحيث اصبحت قواعد الثورة والاتصال بالشعب عن طريق معلميها وتلامذتها بل وجندت منهم في الجيش والتحقوا بالجبل ، أوجعلت منهم دعاتها أوعيونها على الاعداء ، لذلك رأينا السلطة الفرنسية تعتقل معظم المعلمين الوطنيين .

ويتصل بهذا النوع من التعليم نوع آخر ، عنيت به الثورة عناية خاصة ، وهو التعليم داخل السجون والمعتقلات ، فقد أصبحت هذه الاماكن ، مراكز لاشعاع الثقافة ومحو الأمية ، فكانت الدروس في أغلبها بالعربية الى جانب الفرنسية ايضاً ، يقوم بها معلمون معتقلون ويبذلون جهداً شاقاً في انتظامها واستمرارها . تحدوهم روح وطنية ويدفعهم إخلاص لانظير له . وقد دخل شبان للمعتقل وكانوا لايعرفون القراءة والكتابة ، بل جاء شيوخ أميون ، وخرجوا من هذه السجون والمعتقلات وهم يحسنون العربية قراءة وكتابة من غير شكل .

لقد شاهدت هذا عن قرب وعن تجربة عشتها ((بمعتقل آفلو)) . وقمنا فيه مع زملاء كثيرين بهذه التجربة الرائعة وكنا نشاهد الحماس والاندفاع الشديد عند الاخوان نحو تعليم اللغة القومية بل كان البعض يثور حين يسمع زميلاً له يتحدث بالفرنسية ويستهجن منه ذلك

ولم يكن هذا نابعا من أن الثورة جاءت لتعيد للشعب حريته وتسترجع شخصيته ، ولكن إلى جانب ذلك كله كان الاندفاع بدافع التثقيف وحب المعرفة حتى إن بعض الشبان في ظرف ستة أشهر أصبحوا يتقنون العربية اتقاناً جيداً وبعضهم اليوم ، ممن نعرفهم ، يحمل شهادات عليا ولم يتخرجوا من مدرسة رسمية منظمة وإنما تخرجوا من مدارس السجن والاعتقال .

والواقع ان هذه التجربة غنية خصبة يمكن الاستفادة منها حين نطورها ونستخدمها في محو الامية اليوم بحيث نجند من يعرف فيعلم من لايعرف فنقضي في وقتٍ قصير على آفة الجهل وعلى هذه الامية المخجلة التي تعيق سير الوطن وتقف حائلاً بينه وبين التقدم يضاف الى التجربتين السابقتين في التعليم تجربة ثالثة . وهي امتداد لما تم قبل الثورة ، ونعني بها إرسال البعثات إلى الخارج ، فالثورة كانت تفكر في المستقبل وتعي جيداً أن الاستقلال الحتمي يتطلب إطاراً كفئا ويتطلب عناصر قادرة على التعريب ، فشجعت البعثات الى البلاد العربية حيث تخرج مئات ممن يحملون شهادات جامعية عليا في فروع العلم والمعرفة الانسانية .

صحيح أن هناك أخطاء قد وقعت فيما يتعلق بهذه البعثات ، ولكن

الغـرض منهـا قد تحقق واثمـرت نتـائـج باهرة بالقياس الى ظروف الثورة ومطـالبهـا ومشـاكلهـا في ذلـك الـوقت ، بل ان بعض الطلبـة من هذه البعثات قد اتجه بعد ذلك الى الجامعات سواء في أوربا الشرقية أو الغربية واظهـر ذكـاء وقـدرة على الاستيعـاب وتفـوقـاً في الـدراسـة وحاز على شهادات علمية برهنت على كفاءة علمية ممتازة .

أمـا النـاحيـة الثـانية فيما يتعلق بالتعريب أثناء الثورة ، فتتمثل في مجال الادارة ، فالثورة منذ بدايتها اتجهت الى استخدام اللغة العربية في رسائلها ومكاتباتها للشعب أو للمسؤ ولين سواء في الجبل أو في المدن . لقد كانت لغة هذه الرسائل كما شاهدناها في بداية الثورة ، لغة عربية بسيطة بعضها قريب من العامية وبعضها يرقى الى الاسلوب العربي السليم ، حسب ثقافة الشخص وتمكنه من لغته القومية ، بل ان ((الختم)) الذي كان تطبع به الرسائل يشير الى التعلق بكل مايمت بصلة الى العربية ، فقـد كان ((الهـلال)) هو رمـز هذا الختم ، وهـو رمـز قديم يقـابـل رمـز الصليب . حقيقة أن في هذا إشارة الى الديانة ولكنه رمز إلى الشخصية في مجملهـا . كذلـك فان ((التقـاريـر)) كانت في غالب الأحيـان باللغة العربية ، ومن القاعدة بالذات أو من الاطارات المقاتلة ، أو من إطارات جبهـة التحـرير الوطني التي كانت تبذل جهوداً كبيرة للتعبير بلغة الشعب حتى يفهمها الشعب .

ثم ان التسيير الخاص بالادارة والحسابات المالية وما يتصل بهذا ، كان في أغلبـه باللغـة القـومية ، خاصة إذا عرفنا أن العناصر المشرفة على سير الحياة العامة وعلى مصالح الثورة ، هذه العناصر كانت تعمل على نشر اللغة الوطنية وعلى استخدامها في مجالات مختلفة ، وقد برهنت هذه التجـربـة التي رأينـا نتيجتهـا في بعض الأمـاكن ، برهنت على ان اللغـة العربية قادرة على ان تكون لغة الادارة ولغة الحياة ، ولو أن هذه التجربة عممت واستمـرت بعـد الاستقـلال ، لو أننا عدنا إليها وتأملناها لافادتنا اليوم في تجربتنا التي نبحث لها عن نموذج تستوحيه وتقلده وتستفيد منه .

وهنـاك مجال ثالث نجحت فيـه الثـورة نجـاحـاً باهـراً وهـو مجال التعريب الخاص بالدعاية والاعلام والتوجيه . فحين انشئت ((المجالس

الشعبيـة)) بعـد مؤتمـر الصومام ، اتخذت اللغة العربية أداة لنشر الوعي بين المـواطنـين ، لان الشعب ماكـان يستجيب استجـابـة حقيقيـة لو استخـدمت لغـة العـدو في بث أفكـار الثـورة في مرحلتهـا الجديدة ، وقد استغـل المسـؤ ولـون عن هذه المجـالس حماس النـاس وتعلقهم بلغتهم فأذاعوا بها تعليمات الثورة وأفكارها وأهدافها ، فكانوا يردون على دعاية الجيش الفرنسي وعلى ادعاءاته الكثيرة ، بل أن ((الخبراء)) في جيش العدو حاولوا ان يقلدوا طرق وأساليب جيش وجبهة التحرير في استخدام اللغة الوطنية للتأثير في الجماهير . وقد رد المسؤولون الجزائريون على هذه الـدعـايـة بواسطة اللغة التي استجاب لها الشعب ، فحملت من خلالها فكر الثورة وفلسفتها .

ولعـل الـذي كان يلعب هذا الـدور بجـدارة هو ((المسـؤ ول السيـاسي)) الـذي كان لسـان الثـورة وصـوتهـا المبلغ ، فقد كان يتصل بالشعب يذيع فيه باللغة العربية تطورات القضية الجزائرية ويشرح ظروف المعـركـة والاحـداث الداخلية والخارجية المتصلة بحياة الشعب والثورة . ويمهـد بمـواقفـه وأفكـاره للعمليـات العسكرية التي كان يقوم بها جيش التحرير بل ويفصل في القضاياالتي تحدث بين أفراد الشعب بالاضافة الى الخطب التي كان يلقيهـا هو أو غيره من ضبـاط الجيش أو مسـؤ ولي جبهة التحرير ، كل ذلك أوجد مناخاً عربياً وفكرياً حملته لغتنا القومية .

يضـاف إلى ذلـك كله تلك « المنشـورات الـوطنيـة الثورية » التي كانت تكتب بالعـربيـة تثير الحـماس والنخـوة في نفوس الجماهير الشعبية وتدفعهم الى مواصلة النضال بمختلف الوسائل ، وترد على المنشورات التي تطلقها الطائرات الفرنسية أو تلصقها الجدران بغرض الدعاية المضللة

أمـا التـوجـه بواسطـة الصحافه والاداعه ، سرلنا نذكر صدى ما كانت تردده الاذاعـات باللغـة العـربيـة في البـلاد العـربيـة خاصـة في ((الأركـان)) التي تشـرف عليهـا جبهـة التحـريروكان أسلوب الدعاية والتـوجيـه متفـوقـاً مقنعـاً مؤثـراً في الـوقت نفسه ، يعتمد على التحليل والمنطق ويضـرب المثـل في رزانـة الاسلوب ونصاعته وينبيء عن عمق في الفكر وفهم للاحداث بلا مبالغات كاذبة أو كلمات جوفاء فارغة . وبذلك

استطاعت الدعاية الجزائرية ان ترد على أساليب العدو وأكاذيبه المغرضة.

على أن بيئة أخرى ومجالاً آخر لعبت فيه العربية دوراً كبيراً هو بيئة المناضلين في الخلايا والقسمات داخل الوطن وخارجه ، فقد كانت المناقشات والمحاورات تدور بالعربية في معظمها ومجملها حتى من بعض من تثقف ثقافة فرنسية بحتة . وتشرح تلك المناقشات داخل منظمات جبهة التحرير تعليمات الثورة وترصد تطور القضية الجزائرية وتنقل آراء المناضلين للمسؤولين ، وتنمي وعي المواطنين وتكشف لهم الحقائق التي قد تغرب عنهم وتنمي فيهم روح النقد السليم ، وتلك كانت مدرسة جبهة التحرير أسهمت في نشر اللغة الوطنية مثلما انتشرت في مدارسها. خارج الوطن وبين المهاجرين الجزائريين في تونس أو في المغرب أو في فرنسا نفسها .

هذه التجارب المتصلة بالتعريب أصبحت مدرسة للشعب وللاطارات الثورية وفجرت التفكير الوطني العربي كما غرست به حب اللغة العربية في نفوس المواطنين الامر الذي أضعف من أثر ثقافة العدو وتأثيرها في الجماهير .

ولكن الى أي حد استفدنا من هذه التجارب الخاصة بالتعريب أثناء الثورة ؟ .

وهل بالامكان استلهامها اليوم ؟

إن الجواب عن ذلك يحتاج الى مقارنة أخرى بين تجربة التعريب أثناء الثورة وبينها بعد الاستقلال .

وهذا له حديث آخر أرجو أن تتاح لي الفرصة لتسجيله .

تحية لثورة نوفمبر وتحية للثوار الذين يواصلون زحفها وانتصاراتها .

■ ■ ■

نظرة حول قضية التعريب في الجزائر

لعل الحبر الذي سال عن قضية التعريب في الجزائر لايوازيه أو يماثله سوى ما أريق من الدم دفاعاً عن حرية الجزائر واستقلالها ، ذلك ان قضية التعريب ترتبط أساساً بهوية الشعب الجزائري . بانتمائه الى أمة لها خصائصها وتفردها عن بقية الامم والشعوب ، مثلما لكل فرد هويته الخاصة وتفرده وامتيازه . ومن هنا كان ذلك الارتباط العضوي بين قضية التعريب وحرية الجزائر .

وقضية التعريب قديمة وجديدة في نفس الوقت : قديمة لأن الاستعمار الفرنسي كما أصبح معروفاً وشائعاً لدى الجميع حاول القضاء على الذاتية العربية الجزائرية المتمثلة في اللغة وبقية الخصائص الاخرى . وجديدة لانها ظهرت كقضية ملحة عقب الاستقلال الذي صاحبه تغير وجه الجزائر من بلد استعمر طويلاً الى دولة حرة مستقلة تسعى لاسترداد مكّوناتها ومقوماتها الذاتية . وهنا كان لابد ان ينشأ ذلك الصراع حول هذه القضية بين أنصار التعريب وخصومه ـ ولانقول أعداءه . وظهرت شعارات كثيرة تتصل بالتعريب كما ظهرت تعابير ومصطلحات تتصل باللغة العربية ، بعضها دوافعه غير مبرأة من الاحكام المسبقة والنوايا المبيتة .

وقبل أن نناقش المراحل التي مر بها التعريب لابد من التعرض لجملة من المسائل التي أثيرت حول هذا الموضوع والتي تتصل به من قريب أو بعيد .

من هذه المسائل أن التعريب بالنسبة للجزائر لايقصد منه تعريب المصطلحات وانما يقصد منه احلال اللغة العربية محل اللغة الوافدة الأجنبية وهي اللغة الفرنسية ، واعادة اللغة القومية الى مكانتها التي كانت عليها قبل الغزو الفرنسي . . ومن هنا نشأت تلك الشعارات التي تنادي مثلاً : ((بالازدواجية)) أي بقاء اللغة الفرنسية بجانب اللغة

العـربيـة ، على اعتبـار أن اللغـة الفرنسية لغة حية تمثل نافذة من النوافذ التي تطـل منهـا الجـزائر على العصر الحديث والحضارة الغربية الحديثة ، وبـالطبـع فان هذا الشعـار ظاهـره الـرحمـة ولكن باطنه فيه العذاب للغة العربية ، لأن بقاء اللغة الاجنبية التي تتمتع بماض سادت فيه زمناً طويلاً يجعـل من اللغـة العـربية لغة ثانية والمفروض أنها الأولى في بلد له انتماؤه الخاص وكيانه المتفرد .

كذلـك أثـيرت قضيـة اللغـة ((الكلاسيكية)) و((العصرية)) على اعتبـار ان اللغـة العربية ماضياً قديماً كلاسيكياً لايتماشى مع العصر الحـديث ومـا يتطلبـه من لغـة متطـورة حية نامية متجددة في مصطلحاتها وتعـابـيرها ، وكثيراً ما يخلطون بين ((العامية)) و((العصرية)) جرياً وراء المفـاهيم المستعـارة من الغرب والتي أطلقت من بعض المستشرقين أو من جلهم على ((اللغـة العـاميـة)) بهذين المصطلحـين : الكلاسيكي والعصري .

وهي نظرة فيها افتئات على اللغة العربية باعتبارها لغة حية يمكنها أن تسـايـر العصـر . واطـلاق هذين المصطلحـين على اللغـة العـربيـة يظلمها ، لأن الذين اطلقوهما عليها كان في ذهنهم ماحدث للغة اللاتينية واللغات الاوربية التي انفصلت عنها . . يظلمها من ناحيتين : **الأولـى** : أن اللغة العربية لم تمت كما ماتت اللاتينية .

والثـانيـة : أنّ اللهجة العامية العربية في الجزائر أو في غيرها من الأقطـار العـربيـة لاتمثـل لغـة بأتم معنى الكلمـة ، لها مقـومـات اللغـة وقواعدها ومصطلحاتها .

كذلــك أثـار خصـوم التعـريب الى جانب هذا ، فكـرة الحـماس والـواقعيـة التي ترددت بالنسبة للتعريب على اعتبار ان الذين يدعون إليه يغفلون بسبب حماسهم وفي غمـرة انـدفـاعهم مراعاة الواقع الذي فرضه الاستعـمار على الجـزائـر لغـة ادارة وتفكيراً وثقافة وحضارة . هذا الشعار ايضـاً مغلوط من أسـاسـه ، فليس الحماس لمبدأ من المباديء أو هدف من الأهداف أو قضية من القضايا عيباً من العيوب التي يوصف بها الشخص بل العكس هو الصحيـح ، اذ لم نعثر في التـاريـخ على قضيـة انسانية أو

وطنية أو قومية تحققت بغير حماس وتضحيات أيضا .

والى جانب هذا كله أثيرت قضية التفتح والاصالة ، بمعنى أن الاكتفاء باللغة العربية سيجعل من الجزائر بلداً منغلقاً على نفسه حضارياً ، ومن ثمة فلابد من تفتحه على الحضارة العالمية بواسطة اللغة الفرنسية . . على أن الأصالة تتمثل في الأخذ من التراث العربي والحضارة العربية والانتماء لهذه الحضارة . ولكن القضية فيهما معا تكمن في السؤال التالي :

مامدى تفتحنا على الحضارة الغربية ومامدى ما نأخذه من التراث العربي ؟

هناك من يذهب تحت شعار التفتح الى الارتماء في أحضان الحضارة الغربية بكل مافيها من ايجابيات وسلبيات . كما ان هناك ممن ينادون بالأصالة من يدعوا الى الرجوع الى التراث العربي الاسلامي والأخذ منه والعيش فيه وحده بما فيه أيضاً من إيجابيات وسلبيات .

والواقع أن كلا الأمرين فيه شطط واسراف : فالاندفاع في هذا الاتجاه أو ذاك سيخلق عدم توازن في الحياة الفكرية والثقافية بالنسبة للجزائر . وإذن لابد من نظرة أعمق وأوسع تأخذ من الحاضر ولا تهمل الماضي وتوازن بينهما فيما تأخذ وماتدع ، لأن الانفتاح المطلق لكل التيارات والرياح قد يقتلع الجذور الاصيلة الضاربة في أعماق الشعب الجزائري ، وكذلك الانطواء قد يطمس شخصية الثقافة العربية المتفتحة الأصيلة .

. . . هذه جملة من قضايا تثار حول معركة ((التعريب في الجزائر)) وهي جديرة بأن يطول فيها الشرح والتفسير وأن يستمر فيها النقاش لأنها قضايا حيوية تتصل باللغة والفكر والثقافة العربية وتتصل اساسا بالشخصية العربية التي تمر في الجزائر بمرحلة تحتاج فيها الى مزيد من التعمق والفهم .

ويبدو أنه لابد من القاء نظرة تاريخية على المراحل التي مر بها ((التعريب)) في الجزائر حتى تكتمل الصورة وحتى نربط بين الماضي والحاضر ، كما أشرت سابقاً فان هذا المصطلح نشأ في الجزائر بعد

الاحتـلال الاستعـماري في الثلث الاول من القرن الماضي ، واصطدمت الحضـارة العـربيـة بالحضـارة الغـربية الجديدة ووجدت الى جانب اللغة العـربيـة اللغة الغازية الوافدة ، اذ قبل هذا الغزو كانت اللغة العربية في الجـزائـر - **كما في غيرهـا من البلدان العـربية الأخرى** - هي اللغة الأولى والاخيرة .

وليس من همنا في هذا المقال أن نتعرض للمدرسة الجزائرية في هذه الفترة وللتعليم فيها وللغة العربية وللثقافة العربية أيضاً وما صحب هذا كله من محاولـة المسـخ والتشـويـه لهذه المقومات كلها . وانما يهمنا فقط أن نتعـرض للمـراحـل التي مر بها التعـريب تاركـين الحـديث عن هذه المـوضـوعـات الى منـاسبـة أخـرى . ويمكن لنـا ان نحدد اربع مراحل للتعريب .

المرحـلة الأولـى : تنتهي بنهاية القرن الماضي وهي التي حاولت فيها الادارة الفرنسية في الجزائر بمعاونة بعض المستشرقين أن تحصر اللغة العـربيـة في نطـاق ضيق جداً فتقصـرها على العامية وتعليمها للفرنسيين بهدف فهم الشعب الجـزائـري وتفكـيره ، كما انهـا قصرت اللغة العربية الفصحى وتعليمها على بعض الموظفين الذين تحتاج اليهم كصلة ورابطة بين الادارة الفرنسية والشعب الجزائري .

في هذه الفـترة كان الـتركيـز فيهـا على العامية بصورة واضحة في الكتب التي ألفت لهذا الغـرض وفي المقـالات التي نشـرت في المجـلات العلمية والثقافة . ويكفي فقط أن نستشهد بنص واحد لأحد المستشرقين الذين لعبوا دوراً كبيراً في هذا المجال ونعني به المستشرق ((ديسبارمي)) الـذي كان أستـاذاً بالجـزائـر في هذه الفترة فهو في أحد كتبه ((الفوائد في العـوائـد والقـواعـد والعقـايد)) يتحدث في سخرية فيحمد الله على أن جعـل لنعـرب لغتـين : اللغـة الفصحى واللغة العامية وهو يوجه خطابه للتـلاميـذ الفـرنسيين فيقول : ((لهذا السبب واجب على كل واحد من التـلاميـذ النصـرانيـين يتعلم هذه اللغـة العـاميـة باش يتكلم مع جميـع المسلمين ويفهم واش يتكلموا . .)) .

فالهـدف اذن من تعليم اللغـة العـاميـة للفرنسيين واضح وهو فهم

عقليـة الاهـالي الـوطنيـة . . أمـا عندما يوجه خطابه الى الجزائريين فانه يدعـوهم لتعليم العربية الفصحى للانخراط في سلك التراجمة والموظفين والائمـة والمفتشـين والقضـاة . . الخ . وكلا الهدفين لايخدم الا المصلحة الخـاصـة للاستعـمار الفـرنسي ولا يخدم الثقـافة العربية ولا اللغة العربية أداة لهذه الثقافة .

وقبل المستشرقين كان هناك من لعب دوراً في الحفاظ على التراث العـربي والثقـافـة العـربيـة واللغة ، وأعني بها الزوايا التي حافظت على التعليم باللغة العربية على الطريقة التقليدية ولكن تأثير هذا التعليم كان محدوداً بالنسبة لمستوى المتعلمين أو عددهم .

أمـا المـرحلة الثـانيـة : فتبـدأ مع مطلع القـرن الحـالي بظهـور الحـركـة الاصـلاحيـة والأحزاب الوطنية التي أخذت تتدارك حالة اللغة العربية وما وصلت اليه من ضعف وهزال أصابها مدة طويلة ، واذا كانت دعوى بعض السياسيين أو بعض العلماء في الوقت الماضي قد ارتفعت من وقت الى آخر تطـالب بتعليم اللغة العربية واحترامها فان هذه الدعوى لم تقـو ولم تتسع الا في بدايـة القـرن الحـالي ، حيث أصبحت مطلباً يرتبط بالمطـالب الاخـرى التي رفعهـا الشعب الجـزائري ونادى بها في مناسبات مختلفـة ، بل أكثـر من هذا الشعـار عملت الحـركـة الاصـلاحية وبعض الاحــزاب الـوطنيـة كحـزب الشعب على تدارك الامـر ، وذلـك بفتـح المـدارس الحـرة ، وتـدريس اللغة العربية وآدابها واحياء تراثها ، والعمل على تطـورهـا وتحـريـرهـا من الجمـود الـذي علق بها وخـاصـة في بداية الثـلاثينـات عنـدمـا تكونت ((جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)) التي يرجع لها الفضل الكبير في التمكين لهذه اللغة في البيئة الجزائرية والحفاظ عليهـا وعلى ماضيهـا العـريق وعلى الثقافة العربية الأصيلة . ولم يقتصر الامـر على المنـاهـج والـبرامـج التعليميـة أو على المحاضرات والدروس بالمسـاجـد وبالنوادي أو على الصحـافة التي لعبت دوراً هاماً أيضاً في هذا المجال ، لم يكن هذا فحسب بل تعدى الأمر الى الادارة حيث كانت هذه المدارس الحرة تتعامل في انظمتها الاذارية باللغة العربية .

وهـذا الـدور يحتـاج الى دراسـة مستفيضة خاصة لأنه يمثل النواة الحقيقية للتعريب ، تعليماً وادارة وتفكيراً وهو مالايتسع له هذا المقال .

تنتهي هذه المرحلة بقيـام الثـورة الجزائرية إذ أن المدارس الحرةَ قد أغلقت وان الاضـراب عن التعليم قد وجـد استجـابة كاملة من التلاميذ والطلبـة ، وبـذلـك انتقلت قضيـة التعـريب الى جيش التحـريـر الذي احتضنهـا في الجبـال بفتـح مراكـز للتعليم أوبتعـريب مراسـلاتـه وقوانينه وأوامره مما يشكل **مرحلـة ثالثة** تحتاج ايضاً الى دراسة أخرى .

وتأتي المـرحلة الـرابعـة والأخـيرة : وهي مرحلة ما بعـد الاستقلال فهي التجربة المعاشة اليوم التي تتعدد جوانبها وتتفرع فروعها وتعـد بطبيعـة الحـال البداية لوضع الأسس الحقيقية والدائمة للتعريب . ولكي نعرف ما قطعته هذه التجربة من خطوات لابد أن نلقي نظرة عامة على التعليم ومـا تم فيـه من التعـريب في مختلف مستـويـاتـه باعتبـار أن التعليم هو القاعدة الاساسية للتعريب الشامل .

ـ ففي المـرحلة الابتـدائيـة عربت السنتـان الأولى والثـانيـة كما خصصت خمس عشر ساعة للعربية في السنة الثالثة وهكذا حتى نهاية هذه المرحلة .

ـ أمـا في التعليم الاعـدادي والثـانـوي فالى جانب تعـريب مادة التربيـة الـدينيـة والـوطنيـة ومـادتي التـاريـخ والجغرافيا وتعريب بعض الاعـداديـات والثانويات تعريباً كاملاً ، الى جانب هذا اعطيت للعربية في المدارس المزدوجة (التي تدرس فيها العربية بجانب الفرنسية) ساعات قد تصل الى سبع في الأسبوع .

ـ أما في الجامعات فقد عربت بعض الاقسام في كلية الآداب مثل فروع الفلسفـة والتـاريـخ والجغـرافيا ، وقسم اللغة والآداب العربي . كذلك أنشيء قسم معرب في كلية الحقوق .

. . هـذه نظـرة اجمـاليـة عما تم في التعريب ، وهنا يخطر على البال السؤال التالي : كيف يتم التعريب على الوجه الاكمل ؟ .

لقد تكونت « لجنة لاصلاح التعليم » على المستوى الوطني سنة 1969- 1970 م . لوضع خطة كاملة للتعليم واصلاحه في مختلف المستويات وتكونت لجان منها لجنة خاصة بالتعريب وأصدرت بعض القرارات الهامة التي تشير الى الخط الواضح لتعريب التعليم ، ولكنها لم تنته بعد من وضع القرارات النهائية لعملها .

ولكن لكي يتم التعريب على الوجه الأكمل لابد أن يتم تعريب مرحلة التعليم الابتدائي اما دفعة واحدة ، وهذا يصعب تنفيذه لأمور موضوعية مادية تتصل بالاطارات وبالامكانيات المادية والبشرية ، ولهذا نفضل عليه التعريب سنة بعد أخرى . ويمكن أن يطبق هذا الاقتراح على التعليم الثانوي خاصة الثانويات الفنية التقنية ، ويحدد لذلك زمن معين للانتهاء من هاتين المرحلتين ، ومن ثم يصبح تعريب التعليم الجامعي نتيجة لتعريب ماقبله من سنوات التعليم . ومن الممكن جداً أن تتعرب كلية الآداب نهائياً على أن يبقى بها قسم للآداب الأجنبية أوما تحتاج اليه البلاد من لغات حية . وكذلك بالنسبة لمعاهد المدارس العليا يمكن ادخال بعض المواد بالعربية كما هو موجود بالفعل في بعضها ، ويمكن التدرج في هذا من مادة الى أخرى حتى يتم تعريبها كلية . كذلك يبدو من الضروري تعريب كلية الحقوق - لا قسماً بها - كما هو الحال اليوم لما يتطلبه الواقع ويفرضه .

يمكن أيضاً انشاء قسم معرب بكلية العلوم ، وكذلك تعريب بعض المواد أو على الأقل بعض المصطلحات في الكليات العلمية الاخرى كالهندسة والطب وغيرها فيدخلها التعريب بالتدريج حسب خطة محددة وزمن معين .

وقبل أن نختتم هذا المقال لابد ان نشير إشارة سريعة الى تعريب الادارة وخاصة قرارسنة 1971 الذي بدأ تطبيقه هذا العام والذي يوجب على كل موظف في الحكومة أو المؤسسات العامة الجزائرية أن يكون له قدر من التعليم باللغة الأم ، وبالامكان أن يبدأ بتعريب المسائل البسيطة التي لها صلة بالجمهور وقد بديء في تطبيقها فعلا

ثم تأتي المرحلة الثانية لتعريب الأشياء الأكثر تعقيداً ، وهكذا حتى يأتي الوقت الذي يعم فيه التعريب الادارة بمختلف أشكالها وأنواعها . ولابد أن يصحب هذا كله تعريب للبيئة العامة التي يتحرك فيها الطفل من البيت الى المدرسة . وقد تمت أشياء في هذا المجال ولكن بقيت جوانب أخرى لابد أن يتم الانتهاء منها .

هذه نظرة موجزة عن التعريب في الجزائر وعن المراحل التي مر بها وهو كقضية يعيشها الفرد العادي كما يعيشها المسؤول ـ تعتبر قضية حيوية بالنسبة للشعب الجزائري ، ولعل في كلمة الرئيس بومدين في خطابه عند تدشين جامعة قسنطينة سنة 1968 ما يظهر اهتمامه بها فهو يقول :

((وكما حرصنا على استرجاع جميع مواردنا وثرواتنا المادية سنعمل على تعزيز هذا التكوين بتربية وطنية مثلى تساعدنا على استعادة جميع ثرواتنا المعنوية وعناصر شخصيتنا والمكونات الاساسية لذاتنا ، ومن أهمها الوسيلة الأولى للتعبير عن هذه الشخصية وتماسكها وازدهارها حسب عبقرية شعبنا وأصالته ، وبدون استرجاع هذا العنصر الهام الذي هو عنصر اللغة فان مجهودنا سيظل أبتر وشخصيتنا ناقصة وذاتيتنا جسماً بلاروح . .)) .

والواقع أن قضية التعريب ليست قضية لغة فحسب وانما هي قضية الروح والفكر والاحساس والنظرة الى الاشياء ، وهذا هو طموحنا لتحقيقه من خلال التعريب فقد تكون هناك صعوبات وهي موجودة بالفعل يصطدم بها التعريب من أعدائه وخصومه أو صعوبات تتصل بظروف الجزائر وإمكاناتها ، ولكن الارادة القومية تذلل كل هذه الصعوبات وتحقق الهدف العظيم .

■ ■ ■

الحديث في موضوع الوحدة العربية حديث ذو شجون ، لأنه يثير في النفوس كوامن الألم والأسى على ما ضاع من عمر امتنا في التمزق والتشتت مما سبب لها النكبات واحدة تلو الأخرى ، ويمس صميم وجودنا ومصيرنا ، ويتعلق بمستقبلنا كأمة عليها أن تكون أو لاتكون . فالقضية اذن تشغلنا اليوم مثلما شغلت العديد من الساسة والمثقفين والباحثين من قبلنا وكما ستشغل الأجيال القادمة من بعدنا .

وفرق بين ان يتحدث في هذا الموضوع معلق سياسي أو متخصص في الدراسات السياسية والقومية ، وأعترف أنني لست بالطبع من هذا الفريق ، وبين أن يتعرض له مواطن عربي يرصد الأحداث ويتابع التجارب والمحاولات الكثيرة التي تمت في هذا المجال ، ويشعر بحسه القومي أن مصيره ومستقبله ، رهن بمصير أمته ومستقبلها ، ذلك أننا جميعاً مطالبون ومدعوون للمشاركة بالرأي والحوار في هذه القضية المصيرية الهامة .

ولقد أصبح من الأمور البديهية الآن أن التكتل والتجمع أمران ضروريان بالنسبة لأمتنا سياسياً واقتصادياً وثقافياً وحضارياً . وهذه الدعوات المطالبة بالتوحيد والوحدة التي انطلقت من العشرينات من هذا القرن وتواصلت حتى اليوم تؤكد حقيقة لاتحتمل الشك والجدل وهي ان الامة العربية تتجه نحو التكتل ، فالاتحاد ثم الوحدة الشاملة في النهاية ، وأن مصلحتها تتطلب هذه الوحدة على أي شكل تكون وكيفما كانت مراحل تحقيقها لتصل في النهاية كما قلت ـ الى إقامة كيان دولي عربي واحد يقضي على اسباب التفرق والتجزئة ويؤمن للشعب العربي سلامته وتحقق له أهدافه المنشودة .

ولكننا قبل أن نناقش مستقبل الوحدة العربية لابد أن نستعرض سريعاً التجارب الماضية لنستخلص العبرة ونتجنب تكرار الخطأ وتتضح أمامنا الرؤية .

فتجربة الوحدة الاندماجية التي تمت بين مصر وسورية 1958 ، فشلت لأسباب كثيرة كان أولها وأهمها هو التسرع في انجازها دون تأمل عميق وإدراك واع بالظروف المحيطة ولمعطيات الواقع العربي آنذاك . وثانياً أن العاطفة القومية كانت هي المحرك الاساسي لها ، ولاأنسى ماحييت تلك الفرحة الغامرة التي أفعمت بها قلوبنا وقلوب أبناء العروبة جميعاً في ذلك الأمس القريب . لقد كانت الجماهير العربية تسير في شوارع دمشق والقاهرة وكأنها فوق السحاب ، فكأنها لاتصدق ما ترى وتسمع ، والحلم يترآى أمام الأعين حقيقة ماثلة للعيان .

ولكن هذه الجماهير التي اندفعت كالتيار الجارف الهادر لتأييد الوحدة بكل قواها ، لم تجد من ينظم صفوفها للدفاع عن هذه الوحدة. والحفاظ عليها حين تعرضت للهجمات الضارية من الاقليميين والرجعيين ومن الاستعمار واعوانه . وبمجرد أن وقع الانفصال ، تفرقت الجموع وتبددت الطاقات وأخلدت الجماهير الى اليأس واجترار المأساة .

ولقد أعلن بعد الانفصال عن قيام أشكال أخرى للوحدة لم يكتب لها النجاح بالتالي ، بل لم تتحقق الا على الورق لأنها كانت دائما تمثل اتفاقا بين القيادات السياسية بعيدا عن الجماهير التي لم يكن لها رأي فيها ولامشاركة فعالة في بنائها ، بل خضعت في غالب الاحيان للمناورات وللظروف الآنيّة أكثر مما خضعت للدراسة والتأمل العميق وأساسا لأيديولوجية واضحة ، كانت محاولات وتجارب ينقصها الاعداد الحقيقي لتنجز وتتم تدريجيا بصورة تضمن لها النجاح .

وقد انعكس فشل هذه التجارب على نفسية المواطن العربي وأصبح ينظر الى الوحدة وشعارها اليوم نظرة لاتخلو من فتور بعد ان صدم في تجاربها الماضية ، وزاد من عنف الصدمة كارثة 1967 التي ضاعفت من شعور المواطن العربي بالهزيمة والتجزئة ، وعاد اليأس يخيم مرة أخرى على الجماهير العربية مما أوجد المناخ المناسب للروح الاقليمية كي تطفو على السطح بعد أن كانت قد توارت تحت ضربات الوحدويين وتحت تأثير المد القومي الذي انطلق من قبل عدة سنوات وكان هو الاتجاه الذي أكتسح كل اتجاه أخر مضاد .

وبدلا من أن تكون هذه الهزيمة أو الكارثة بداية لمرحلة شاملة وجذرية لتجارب الماضي وعبرة نستفيد منها في انطلاقنا نحو المستقبل اصبحت تراجعا الى الماضي وردة عنيفة الى الخلف ، وأصبح دعاة الشعوبية والاقليمية يصرحون بعدائهم للوحدة جهارا نهارا وبلا خوف أو موارية .

ويحضرني في هذا المجال ماقاله لي احد الصحفين العرب اللامعين في أغسطس 1967 بالحرف الواحد : ((لقد ماتت الامة العربية)) وكان جوابي له : ((اضرب لي مثلا واحدا بأن هناك أمة ماتت واندثرت بسبب هزيمة واحدة في تاريخها ؟؟)) وأفحم يومها ولم يحر جوابا .

ولقد سايرت هذه الروح الأقليمية كل الافكار الانهزامية والانعزالية والرجعية التي لاتعرف ولاء للوطن ولا للعروبة وأن ولاءها لمنفعتها ولمصالحها الذاتية .

وبعد ان كانت الجماهير هي القوة المحركة والظاهرة على السطح باتت القوى المضادة هي التي تحاول ان تقود وتوجه وتتطالب بالعودة الى المفاهيم التي تجاوزتها الأحداث

وصحيح أن انتصارنا في حرب اكتوبر 1973 قد أعاد الى المواطن العربي الثقة في النفس وفي امكانيات الامة العربية وانتصارها على اعدائها سواء في الخارج أو في الداخل ولكنه لم يعط دفعا لقضية الوحدة كما نأمل ، وكانت نتائجها في هذا المجال محدودة بل بالعكس اتخذ البعض منها نقطة للارتداد الى الفكر الرجعي الأقليمي الذي كان سائدا فيما قبل الحرب العالمية الثانية ، ويكفي أن نتأمل ما يحدث في لبنان لنتبين الى اي حد يجتاح الأمة العربية هذا المد الرجعي الأقليمي الذي يغذيه الاستعمار ويعمل على تقويته .

وباستثناء بعض الاقطار العربية التي رفضت الهزيمة وحاربت النظرات الأقليمية ورفضت سيطرة الاقطاع والرجعية فان المناخ الفكري الذي يخيم على الامة العربية الآن هو المضاد للوحدة حتى في أبسط صورها وأعني بها التضامن الاقتصادي في قضية حيوية هامة بالنسبة

للعرب أجمعين وهي قضية البترول والطاقة .

ولكن ماذا عند المستقبل ؟؟ وكيف نتصور الوحدة في الغد ؟ وما هو شكلها بالنسبة للمرحلة الراهنة وفيما بعد ، أي في نهاية القرن مثلا ؟؟ .

ورغم أن الاجابة على هذه الأسئلة من الصعوبة بمكان ، بالنظر إلى الواقع القومي المتردي ، وبالنظر إلى الظروف الدولية الراهنة والتي هي قابلة للتغيير بين وقت وآخر ، وغير ذلك من العوامل ، إلا أننا نستطيع القول بأنه من الأنسب في المرحلة الحالية أن نبدأ بالوحدة الجزئية بين بعض الاقطار التي تتقارب في أنظمة الحكم وتتفق في الايمان بالاديولوجية العربية التي هي أديولوجية ثورية تقدمية ، على أن تكون البداية بالوحدة الاقتصادية ثم الاجتماعية والثقافية وأخيرا الوحدة السياسية ، فبغير توحيد في الاقتصاد ، وبغير إشتراكية حقيقية ترفض الاستغلال وتعدل بين الناس بقوانين وتشريعات يتساوى فيها المواطنون بلا تفرقة بغير ذلك تكون الوحدة الجزئية معرضة للفشل حتما ، لأن إختلاف النظم الاقتصادية سيخلق صراعا بين المواطن وبين الحكام أنفسهم .

كذلك فان وحدة التعليم والتشريع ستؤدي الى التوافق والانسجام والى الوحدة الفكرية التي تخلقها ثقافة موحدة في أهدافها وأساليبها ومحتواها ، فمن الصعب ان توجد وحدة فكرية بدون أديولوجية موحدة وثقافة موحدة ، اذ كيف نوحد بين فكر اشتراكي تقدمي وبين فكر رأسمالي رجعي ؟؟ .

إن محاولة ذلك ضرب من العبث ولون من « التلفيق » الذي قد يصلح في أمور أخرى ولكنه لايصلح في القضايا الجوهرية مثل قضية « الوحدة » ، وأعتقد أن توحيد هذه المجالات كلها سيؤدي بالضرورة إلى الوحدة التي ننشدها وهي الوحدة السياسية .

وبالطبع فأن هذه الوحدة الجزئية الصغيرة إن صح التعبير يمكن ان تقودنا الى نوع من الوحدة أوسع ، وهي « وحدة المنطقة » ، أي وحدة عدة بلدان بينها من التشابه والتقارب مايسمح بذلك ، لأن هناك مناطق في العالم العربي يوجد بينها من الأواصر والعوامل الجغرافية وغيرها

مايمكن أن يساعد على وحدتها في زمن قريب . وهذا لايعني أننا ندعو الى تجزئة من نوع آخر كما قد يتصور البعض ، وإنما هي مراحل نتدرج فيها الى الوحدة الكاملة ونجرب أسهل الطرق وانجحها لانجاح الوحدة تدريجياً وبوعي وفهم ودراسة حتى لانفشل مرة أخرى . فما هو المانع من أن تتوحد الاقطار العربية الموجودة بالقارة الأفريقية مثلاً وتتوحد الاقطار الموجودة بالقارة الأسيوية ثم تكتمل الوحدة الكبرى بضم جناحيها بعد ذلك .

بالطبع ان الشروط التي سبق ان ذكرناها في الوحدة الجزئية ينبغي أن تتوفر بدورها في وحدة المنطقة .

فمن المنطق أن تبدأ الوحدة ببلدان متقاربة في الارض وفي مختلف الظروف والعوامل المادية والفكرية وفي المصالح المشتركة وهي وإن كانت مصالح تهم العالم العربي ككل فإن مصلحة منطقة قد لاتكون بعينها وبالضبط مصلحة المنطقة الاخرى وإن التقت في النهاية على المدى البعيد كما ألمحت سابقا .

وسأضرب مثلاً بفلسطين إن المنطق والحاجة والضرورة تقضي أن تتوحد البلدان المحيطة بأسرائيل بجيش واحد وإقتصاد واحد ومواقف واحدة وقيادة واحدة حتى يمكنها أن تخوض حرباً حقيقية بقوة موحدة تدعمها بقية البلدان العربية البعيدة عن أرض المعركة ، ولوتم هذا في الماضي لما تخبطنا في صراعنا مع اسرائيل ولما انهزمنا امامها مرات عديدة . أما أن نترقب وحدة الامة العربية كلها كي تحرر فلسطين فإنه نوع من السذاجة الفكرية ففوق اننا لانراعي الظروف فأننا نتصور أن إسرائيل ستبقى كما هي الآن ونتصور في أن الوحدة ستتم بين عشية وضحاها ، وهذا منطق عاطفي ساذج . ثم نصل الى الوحدة الكبرى وأفاقها في المستقبل القريب أو البعيد وهنا يمكن ان نتصور هذه الوحدة اذا تمت تدريجياً وبالشكل الذي طرحناه آنفاً ، يمكن ان نتصورها في صورتها النهائية التي تتوحد فيها الاجزاء كلها سواء عن طريق الاندماج أوعن طريق «الاتحاد الفدرالي» في رأيي أنسب طريق لهذه الوحدة ، لأنه يجنبنا

كثيراً من العثرات التي يخلقها أعداؤنا في الداخل وفي الخارج على الأقل في مرحلة معينة حتى نصل الى الوحدة الاندماجية الكاملة في المرحلة النهائية .

ولكن كيف يمكن ان تتم هذه الوحدة ؟ وبأية طريقة ؟ هل بانتخاب عام أو بثورات شعبية أو بغيرهما ؟ هذا ما يمكن ان يطرح للمناقشة ويجري حوله الحوار .

ان تجارب الوحدة في العالم أثناء القرن الماضي مثل وحدتي المانيا وإيطاليا من الصعب أن تتكرر بالاسلوب الذي تمت به في ذلك الوقت ، لأن الظروف قد تغيرت ولأننا نعيش عصر الديمقراطية والحرية والمساواة وحق تقرير المصير ، أما طريق الثورة الشعبية فهو أسلم لتحقيق الوحدة المنشودة خاصة في الاقطار التي تخضع لحكم رجعي مضاد للمصلحة الحقيقية للجماهير العربية ، ونحن لانستبعد ان يتحقق ذلك ، فالشعب العربي على مدى عشرين عاماً فجر ثورات عديدة ثار الشعب المصري على الملكية والاقطاع وثار الشعب الجزائري على الاحتلال الفرنسي وثارت سوريا والعراق وليبيا على الانظمة الرجعية المتخلفة وثار اليمن شماله وجنوبه على الاستعمار والحكم العميل .

وهناك الآن ثورات أخرى في ظفار وفي الصحراء الغربية وفي ارتيريا ، وفي الامكان أن تثور مناطق أخرى وتتحرر من الاستغلال وتساعد على تقريب ساعة الوحدة .

على أنه كما ذكرت من الضروري أن تلعب الجماهير العربية دورها في الوحدة ، وحين يتاح لهذه الجماهير أن تعبر عن رأيها بحرية كاملة فأنها بلا شك ستختار الوحدة بارادتها وعن اقتناع كامل بجدواها وضرورتها كقوة مادية وأقتصادية ومعنوية . أقول حين تتأكد الجماهير من ذلك ستختار الوحدة وتتشبث بها ، إذ لايكفي ان تقدم لها الوحدة في الاغاني والأناشيد والخطب ، ولكن ينبغي أن تقدم لها في الخبز والمسكن والمدرسة والجيش وفي المصانع والتنظيمات المختلفة وفي الثقافة والفكر الاشتراكي القومي الوحدوي .

وأعتقد أن الحكم الثوري الذي يستجيب لهذه الجماهير ولطموحها سيساعد على الوحدة ويسعى لها ولتحقيقها ، ولكن هذا الحكم ينبغي ان يكون نابعاً من أعماق الشعب ومعبراً عن ضمير المواطن العربي وعن أحلامه ومستقبله . وهو لايكون وحدوياً إلا إذا عمل على إقتلاع جذور الأقليمية والتعصب وتحرر من الذاتية ومن المصلحة الآنية واندمج في حركة التاريخ للامة العربية وأصبح صوتها الذي يحدوها الى المصير المشترك .

وهنا نعود الى ماسبق أن ذكرنا وهو أن هذه الانظمة الشعبية الثورية التي تتجمع في منطقة وتتوحد في أجزاء ستتوج الوحدة النهائية التي ستحقق بارادة الوحدويين من ابناء الامة العربية .

إن آفاق الوحدة في نهاية القرن تبدو لنا أقرب من حبل الوريد ليس فقط لان الايمان بها وحده يكفي وانما الظروف ستجبر العرب على الوحدة : **أولا** لان العصر عصر تكتل ثقافيا واقتصاديا وسياسيا وحضاريا وعسكريا . وثانياً لأن قضية فلسطين - في رأيي - ستلعب دوراً رئيسياً في دفع اقطار العرب نحو الوحدة والا فسيقع لها مثلما وقع لفلسطين لأن الصهيونية لن تكتفي بما أخذت وانما هي تعد وتخطط لتلتهم أجزاء أخرى ، لذلك فان الوحدة أمر حتمي في السنوات القادمة يفرضها الدفاع عن النفس والحفاظ على الوجود للفرد والامة معا .

وانني أتصور بدايات القرن القادم بداية لعلم عربي واحد يخفق فوق هذه المساحة الشاسعة التي تمتد بين قارتي آسيا وإفريقيا من المحيط الاطلسيُ الى الخليج العربي ، ومن الصحراء الغربية العربية وموريتانيا الى ارتيريا والصومال .

■ ■ ■

تيارات فكرية قبل الثورة وأثنائها

يحتفل شعبنا هذه الايام بالذكرى العشرين لثورة أول نوفمبر العظيمة واحتفاله بهذه الذكرى ليس فقط للتعبير عن نشوة الانتصار أو الابتهاج بهذه المناسبة التاريخية التي أعادت للانسان الجزائري كرامته وحققت له ـ على أرضه ـ حريته ومصيره ، ولكن أيضاً لأن هذه الثورة نقلت الشعب من مرحلة الى أخرى وحددت له طريقه الصحيح : ومن ثمة فأن الحديث عن الثورة ، مجرد الحديث عن شعاراتها وانتصاراتها لايكفي ولايفيد كثيراً وانما ينبغي ـ في تقديري الخاص ـ ان نقارن بين عهد الثورة والعهود السابقة عليها ثم ـ وهذا هو الأهم ـ ان نستخلص العبرة من الاحداث التي مر بها شعبنا سواء قبل الثورة أو أثناءها .

ومن الأهمية بمكان ان نعيد النظر في بعض القضايا التي عاشها شعبنا في ماضيه القريب والتي مازال يعيشها حتى الآن وان اختلفت الظروف ، خاصة تلك التي ترتبط بحياة المجتمع ارتباطاً عضوياً ، فهي متجددة دائماً وان اتخذت لها مسارات خاصة أو تلونت بأصباغ وظلال معينة :

فما لاشك فيه أن بعض القضايا أو بعض الافكار لاتذوب أو تجمد ولاتتوقف لانها تحدد هوية الشعب وتصور واقعه وتطبعه بطابعها الخاص كما أنها أيضاً ترسم له مستقبله .

وقضية الثقافة القومية او الفكر القومي وما يتصل بهما من قريب أو بعيد تأتي في مقدمة هذه القضايا التي تحتاج دائماً الى الحديث أو الحوار لأنها تكون ذوق الفرد وتحدد شخصية المجتمع .

على أن الحديث عن الثقافة أو الفكر يقتضي منا أن نعرض للتغير الذي حدث بعد الثورة في هذا الجانب ونقارن بين فترة الثورة وما قبلها ، ومثل هذه المقارنة تتيح لنا ان نعرف مدى التطور الذي حدث وساعد على تقدم الافكار أو نضجها ، وان نطلع على دور هذه الثقافة وهذا الفكر في

حقبـة من الحقب بحيث ينعكس أثـر ذلك كله في تفكير المجتمع وقناعته على اختلاف فئاته واتجاهاته وتطلعاته .

وسـواء كان مفهـوم الثقـافة هو التعبير عن موقف أم وجهة نظر تجاه الكون والحياة والانسان أم أنها نشاط إنساني ابداعي أو تجريبي وسواء أيضاً كانت تعبيراً عن معارف معينة تظهر في أشكال مختلفة ، في الفن والادب والعلوم أم كانت تعبيراً عن حركة المجتمع في تطوره الفكري عبر مراحل تاريخيـة معينـة ، وسواء أكانت الثقافة ـ كما يذهب البعض ـ هي ما يبقى للفـرد بعـد ان يستـوعب المعـارف الانسـانية وبعد ان يتكون ذوقه ووعيه بالحيـاة وتجـاربها المختلفة ، أم أنها مجموعة قواعد للسلوك والتفكير . . أياً كان مفهـوم الثقـافـة اذن فان المهم هو في الحلول التي تتـوصل اليها ، أي مدى ما تقـدمـه للانسـان من وعي بواقعه واستبصار بمستقبله ، وبتعبير آخـر ان وظيفـة الثقـافـة هي التي تحدد نفعهـا وأهميتهـا ، وهـذا ما يفسـر إختـلاف وجهـات النظر حولها وحول مفهومها فهناك فرق مثلاً بين مفهوم الثقافة البرجوازي ومفهومها الاشتراكي .

والـواقـع أن مجرى الثقـافـة مهـما استمد قوته من روافد انما يتحدد بمصبـه ، بالهـدف الـذي يرسم نقطـة النهـايـة فيـه وهـو ما أطلقنـا عليه ((وظيفة)) الثقافة التي تحدد الوعي الذي يسهم في تطور الفكر البشري ويسهم في انتصار الخير في الانسان ، كما يحقق له العزة وكرامة العيش . لذلـك نحتـاج باستمـرار الى العـودة الى منـابـع الفكـر والثقـافـة والى الاتجـاهـات التى ظهـرت في فترة ما ثم اختفت أو تلاشت في فترة ثانية أو تجمدت في فترة ثالثة لظروف خاصة مربها المجتمع حتى تجد فرصة العودة والظهور من جديد .

والملاحظة التي نسجلها في هذا المضمار ان الاجيال يأخذ بعضها عن بعض ويـؤثـر السـابق منهـا في الـلاحق نوعـاً ما ، فهناك تأثير خفي متبـادل بين جيـل وجيل ، ويحدث هذا التواصل في الفترات المتقاربة وان بدا أحيـانـاً أن هنـاك انقطـاعـاً بين الاجيـال المتتـالية ، ولكنه انقطاع في الظاهر نتيجة معطيات جديدة فرضها تطور المجتمع في مرحلة من المراحل

بحيث يبدو الامر للبعض وكأن جيلاً خلق بدون مؤثرات أو أفكار سابقة على افكاره ، وهذا التصور هو الذي دفع فئة من الناس عندنا الى رفض الفكر السابق على الثورة بل وعزلها عن المؤثرات والعوامل التي لعبت دوراً أساسياً في تكوينها ، وكأنهم قد أكتشفوا الشعب الجزائري فقط بعد ثورة نوفمبر دون ان يتمعنوا في تاريخه الطويل العريض الضارب في أعماق الزمن .

ان هذه النظرة ((الانفعالية)) قد ترضي العاطفة الوطنية في مرحلة ((التفجير)) ولكنها لاترضي الحقيقة ، لأن الواقع يؤكد ان حلقات التاريخ مترابطة وان الشعب الجزائري لم يولد بين عشية وضحاها ، وان جذور النضال فيه ممتدة وان كان نضال ثورة نوفمبر أسطع وأقوى لانه حقق الانتصار العظيم ، وما كان له ان يحققه لولا انه ارتكز على فكر وعلى تراث نضالي وتجارب ثورية عريقة .

وحتى لاأخرج عن الموضوع الذي نحن بصدد الحديث فيه ، أريد ان أشير الى نقطة أراها جديرة بالتنويه وهي أنني في هذا المقال ، اهتم بالفكر بمفهومه العام الذي يشمل الثقافة ويشمل اي نشاط فكري وابداعي فإذا كان الفكر هو مجموعة قواعد ومعتقدات نظرية كونتها مناهج معينة ، فان الثقافة تجسيد هذا الفكر في اشكال من التعبير تختلف أساليبها ولكنها تسعى الى خدمة الانسان وتكوين تفكيره وذوقه وشعوره .

كذلك فانني لااعرض للادوات أو للوسائل التي استخدمت لبث الفكر والثقافة أو للاشكال التعبيرية التى استخدمها الكتاب والادباء والمفكرون فلهذا مجال آخر ، وانما الذي يهمني هنا هو رصد التيارات والاتجاهات الفكرية التي سادت فترة ماقبل الثورة ، هذه الاتجاهات هي التي انعكست في انتاج الكتاب والمفكرين والسياسين ونشرتها الوسائل الثقافية بين الناس ، كالصحافة والكتاب والخطابة والمنشورات والبيانات السياسية الى جانب اشكال التعبير الاخرى . . ولكن المهم هو تأثير هذه الافكار من جهة ثم مدى الحلول التي قدمتها لمشاكل الشعب ومدى ما

حققته من نجاح أو فشل ، ثم وهذا هو الاهم ، النتائج التي نستخلصها منها وكيف نظرت الثورة اليها

واذا حاولنا ان نرصد الاتجاهات الفكرية والثقافية في فترة ما قبل الثورة ، وهي اتجاهات تمثل مجموعة أفكار سياسية أو عقائدية أيديولوجية وان صح القول ـ ظهرت في مجرى الثقافة فيما مضى : اذا حاولنا ذلك لابد ان نصطدم بالحساسية ، **أولاً** ، لان جيلنا قد عاش تلك المرحلة وارتبط بافكارها او ببعضها على الاقل ، مازال بيننا من يحن لها ويتعاطف معها نتيجة تكوينه ورتباطه بالماضي ، والانسان مجبول على حب ماضيه ولايسلم فيه بسهولة .

وثانياً : ان تقويم فترة من الفترات يحتاج الى ادلة وشواهد وأسانيد ونصوص تعضد رأي من يسعى الى ذلك وهذا مالايساعد عليه المجال .

ومن هنا فأنني اعتبر ماأسجله في هذا الحديث ان هو إلا رأي خاص كونته من المعايشة ومما قرأته ، فالذي يراجع النصوص التي ظهرت بظهور الطباعة في الجزائر منذ بداية هذا القرن ويراجع الاثار الأدبية والانتاج الفكري والثقافي بوجه عام سيلحظ أن أبرز الاتجاهات الفكرية التي امتدت قرابة نصف قرن تتمثل في الفكر الرجعي المحافظ والفكر الاصلاحي والفكر اللبيرالي ثم الفكر الاشتراكي .

ولاشك ان **الفكر الرجعي المحافظ هو أقدم هذه الاتجاهات** وأكثرها ارتباطاً بالقديم ،وساعد على تكوينه وبقائه واستمراريته حتى قيام الثورة ، جملة عوامل منها عصور الانحطاط التي بذرته وسحبها التي خيمت ليس فقط على بيئتنا ولكن على البيئة العربية كلها بعد ان تقلص ظل الحضارة الاسلامية وبعد ان تجمدت الثقافة العربية ولم يبقى منها سوى قشور براقة ليس لها امتداد وليس فيها عمق ولا أثر للتطور فيها . وإلى جانب ذلك هناك عامل قوي لعب دوراً قوياً في استمرار هذا الاتجاه ، ونعني به وجود الاستعمار في بلادنا حقبة طويلة من الزمن ، فالمحتل شجع هذا الاتجاه ووجد فيه سنداً له ولمصالحه بل ساعد على تكوين

طبقة تتعصب لهذا الفكر الرجعي والاستعماري معاً وهي طبقة لاذت بالماضي ورأت فيه حلاً لمشاكل الحاضر ، واعتنقت فكرة القدرية وترك مقاومة الاستعمار الى قدرة غيبية وما يتصل بها من سبيل ومن تحجر في الفكر بسبب التربية أو التكوين أو تلقين أفكار لاتستند الى منطق أو عقل أو خبرة حية بحيث ينتج عن ذلك استسلام وتواكل فانتشر الفكر الخرافي الذي كاد يشل بالشعب قوة الخيال والابداع والفكر الخلاق .

وهذا الاتجاه الرجعي المحافظ الغى التفكير العقلاني بل الغى العقل كلية ورفض الاجتهاد الذي يمثل احدى الاسس المضيئة في الحضارة العربية الاسلامية . وبدل من ان تعمل هذه الطبقة على تنمية الثقافة العربية كما بزغت في العصور الذهبية ، راحت تردد نصوصاً كتبها أصحابها لواقعهم التخلف ولظروفهم الخاصة ولعصرهم المظلم . وعلى هذا أصبح كل من يدعو لفكرة جديدة أو لفهم جديد ـ في نظر هذه الطبقه ـ ملحدا أو كافرا ، بل ان فكر هذه الطبقة رفض كل فكر لايسانده وشن حرباً على الاتجاهات الاخرى وكان موقفه عقبة أمام تطور المجتمع وأمام تطور الثقافة الاصيلة في بلادنا فهو حين رفض العقل رفض أيضاً التجربة الحية لانه في الواقع الغى ارادة الانسان وحريته ومصيره في الحياة .

إن الذي يقف على تفكير هذه الطبقة ويطلع على ما كانت تكتب من افكار ساذجة جامده ، يدرك مدى التدهور الذي قد يصيب الفكر والثقافة وينعكس على الانسان فيتصرف تصرفات تبدو لغيره مضحكة ولكنها تبدو له سليمة مقنعة ، وهذا ما يفسر كيف انتشرت الافكار العجيبة في بيئتنا واتخذت لها مظاهر مؤلمة محزنة ، بصرف النظر عن اداة الثقافة ومظهرها ووسائلها : فكما يوجد الرجعي فيمن ثقف ثقافة عربية يوجد ايضاً في من ثقف ثقافة غربية وإن اختلفت التفاصيل ، أنه فكر ضد الثورة أصلاً من أي نوع كان .

أما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه الاصلاحي ، وهو فكر متقدم متطور بالقياس الى الاتجاه الاول بل هو ثورة عليه ، فالفكر الاصلاحي خطا

بالفكر الجزائري خطوة هائلة لايبدو أثرها لنا اليوم ، ولكنه في الفترة السابقة على الثورة كان وثبة الى الامام بالنسبة للفكر والثقافة .

والسمة الاولى لهذا الفكر انه أحدث نوعاً من التوازن بين الماضي والحاضر وأوجد جسراً بينهما فهو يختار من الماضي ألمع فتراته ، فيضرب بها المثل ويستمد منها القدرة على الاستمرار ويستوحيها فيما يقول ويفعل ، وفيما يكتب أو يهدف ، ولكن في الوقت نفسه لايرفض التطور ولا يرفض الحياة - كما يفعل الفكر السابق عليه - وإنما يسعى الى الملائمة بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الغربية الغازية التي لايرى فيها شراً كما يرى فيها أصحاب الفكر الأنف الذكر ، فالفكر الاصلاحي بطبيعته فكر وسطي ، فكر توفيقي ، فهو يأخذ من الحضارة الغربية بقدر ما تساعده على فهم الواقع وتأصيل فكره فلا يتخذ منها مثلاً أو أطروحة لفكرة يمكن بها أن يحل مشاكل المجتمع وإنما الذي يحل مشاكل المجتمع هو الحفاظ على الجذور او مايسمى بالاصالة والاستفادة من العصر بالقدر الذي لايطغى على المعتقدات السليمة في الحضارة العربية الاسلامية .

وهذا الاتجاه هو الذي خلق ثقافة وطنية قومية لأنه تبنى أسسها ومكن لها في الوطن وغذاها بأفكاره ونشرها بين جماهيره على نطاق واسع ومكن لها بوسائل مختلفة وركز على فكرة ((الاحياء)) إحياء اللغة ، إحياء التراث ، وصقل العقيدة كما بدأت في عصر الانبعاث .

أما السمة الثانية : فهي الملائمة بين العقل والدين ، وهذه الملائمة تندرج ضمن منطق الاصلاح وموقفه من قضايا العصر ومن مشاكل المجتمع . وهذه النظرة قديمة في الفكر الاسلامي ، فهو الفكر المجدد الذي يؤمن بالاجتهاد وبإعمال النظر في القضايا التي تستجد بسبب التطور في عصور تختلف أوضاع الناس فيها إختلافاً بيناً عن أولئك الذين عاشوا ظروفاً أخرى لها معطياتها ومشاكلها .

والسمة الثالثة لهذا الفكر انه قرن القول بالفعل ، لذلك اعتمد على مناهج خاصة في بلورة أفكاره وتعرض لضغط من الادارة الاستعمارية الفرنسية وحورب مثلما حورب الفكر الوطني الذي نادى

بالانفصال عن الحكم الاجنبي . ومع ان هذا الفكر يمتاز بالنظرة الجديدة للحياة والانسان وهي نظرة نسبية الا انه يبقى فكراً اصلاحياً سواء في الدين أو في السياسة ، فالعبرة ليست في اعتماده على نوع الثقافة أو صبغتها وانما العبرة بموقفه من الحياة والمشاكل الاقتصادية والفكرية والسياسية : لذلك نجد هذا الفكر في طبقة معينة سواء ثقفت ثقافة عربية أو فرنسية .

ولاشك أن هذا الفكر ـ عكس السابق عليه ـ قد ساعد على إيجاد المناخ المناسب للثورة ، لانه غرس في أصحابه واتباعه حب الوطن والاعتزاز بتاريخ الاجداد . كذلك لايمكن ان نعمم حكمنا في هذا الاتجاه على ممثليه جميعاً لاننا نجد داخل هذا التيار من يؤمن بالثورة وبالعمل لها ، وانما حكمنا ينصب على الطابع العام له ، ولو أردنا ان نقارن بين هذا الفكر وبين السابق عليه لوجدنا الفرق الواضح يكمن في أن الفكر الاصلاحي فكر ((حركي)) أي أن له نظره جديدة للتاريخ تمتاز بفهم ((دينامي)) للمجتمع بينما الفكر الرجعي الجامد لايعترف بحركة التاريخ ولايعمل من اجل التقدم بأي نوع من أنواع العمل . فبقدر ما نجد هذا الفكر الاصلاحي إيجابياً في مجمله فقد لعب هذا الاتجاه دوراً كبيراً في الحياة الفكرية والثقافية والسياسية ، بل وكان له الفضل في تحطيم الفكر السابق عليه .

وهناك تيار ثالث لعب أيضاً دوراً بارزاً في فترة ماقبل الثورة خاصة في الفكر السياسي واعني به الاتجاه « الليبرالي » الذي يرفض الماضي رفضاً كلياً ويرى فيه عائقاً دون التقدم ويؤمن بالعقل وحده ، فهو اتجاه عقلاني صرف ، ولاشك ان هذا الاتجاه هو ثمرة الثقافة الغربية والفرنسية بوجه خاص وهو اتجاه يدعو الى الحرية الفردية ويتبنى التفكير « البرجوازي » الطبقي الذي استمد مقوماته ونظرياته من الفلسفة الغربية ومن الفكر الفردي ، وقد تأثر بالمذاهب السياسية التي دعت الى تكوين الاحزاب وقيام البرلمانات ودعا الى الديمقراطية الممثلة في الانتخابات وحرية التعبير والاجتماعات وما الى ذلك من الافكار التي

بهرت فئة من الجزائريين فاعتنقوها ورأوا فيها حلا للمشكلات المادية والفكرية للشعب الجزائري بل اعتبروا هذا الفكر هو الدواء الذي لادواء غيره لما يتخبط فيه المجتمع من تخلف وجمود وعبودية .

على ان هذا الاتجاه يتراوح بين من ينادي « بالادماج » في المجتمع المتفوق الذي غزا البلاد ، وبين من ينادي بالاستقلال، وبالانفصال عن الدولة الحاكمة ويرفض الاندماج كلية وتحت أي مظهر أو شعار . وبين هذين الطرفين داخل هذا التيار الكبير نجد من يربط بين الاستقلال وبين القضايا الاجتماعية أو ينظر للاستقلال هدفاً في حد ذاته دون الاعتبار للناحية الاجتماعية والاقتصادية وهو في ذلك يجاري الفكر الليبرالي الذي يؤمن ببقاء الطبقة وبالربح المادي الذي يعتمد على الكفاح الفردي وفانون العرض والطلب .

غير ان الجناح القوي في هذا الاتجاه هو الذي طالب بالانفصال عن الدولة المستعمرة وناضل من اجل الاستقلال والحرية ، واسهم بفعالية في تثبيت الفكر الوطني الثوري ، ومهد للثورة بالوسائل المتاحة له في ذلك الوقت بل وكافح من أجل التحرر من سيطرة الاستعمار الفرنسي وبرهن على تمسكه بالتضحية الجسيمة وتعرض للتعذيب والتشريد والقهر الاستعماري لانه رفض الحلول الوسطى وآمن بالكفاح المسلح .

وبالرغم من أن هذا الاتجاه اتخذ هذا الخط ، فأنه لم يستطع ان يبلور نظرية متكاملة يحطم بها الفكر الاستعماري وتقليعه من جذوره ، ذلك لانه عني في عمله بمحاربة الاستعمار السياسي العسكري ولم يهتم أو يحاول القضاء على أفكاره وثقافته العدوانية . بعبارة أخرى : عني بالقضاء على الجانب الظاهر من هذا الاستعمار وترك الجانب الخفي الخطير الذي تغلغل بواسطة الثقافة . ويرجع السبب في ذلك ـ كما أشرت الى أن البعض من أصحابه خلبتهم الثقافة الفرنسية والحضارة الغربية ولم يستطع ان يتحرر من مثلها وصورها وايحاءاتها .

ومع هذا كله فإنّ هذا الاتجاه وضع الاسس للفكر الثوري ولا أقول التقدمي الاشتراكي وأسهم فعلاً في تفجير الثورة . خاصة منه تلك

الطليعة التي لم تلوث بالصراعات الحزبية والتسابق على الشهرة أو الزعامة ، وهي طليعـة مهـدت للفكر الثوري التقدمي الذي ظهر بعد قيام الثورة بصورة قوية وأصبح هو التيار العام في فكر ثورة نوفمبر كما تمثل في مواقف وأفكار المثقفين سواء من ثقف قومية عربية أو ثقافة أجنبية .

ويبقى الاتجـاه الـرابـع والاخير ، وهو الاتجاه الى الاشـتراكيـة وهو اتجـاه يبـدأ من مفهـوم الـدين للاشـتراكية ـ كما ظهر في بعض النصوص الأدبيـة وغـيرهـا ، الى مفهـوم المـاركسيـة ، مرورا بمفهـوم العداله والمساواة بين جميع أفراد الشعب .

والواقع أن هذا الاتجاه يمزج بين أفكار كثيرة حول الاشتراكية ولم يتبلور في طبقة معينة الا في فترة متأخرة جداً ، فقد اقتصر في باديء الامر على أفـراد لم يؤثـروا في مجرى الحياة الفكرية والسياسية تأثيراً واضحاً وان اسهموا في وجود هذا التيار الذي اتضحت معالمه فيما بعد .

وإذا كان الاتجـاه الليـبرالي الوطني رأى في الاستقلال حلاً لمشاكل الشعب في التحـرر من السيطـرة الفرنسية سبيلاً للنهوض والتقدم بصرف النظـر عن المنهـج الفكـري أو الايديولوجية ، فان الاتجاه الى الاشتراكية نظر الى الواقع نظرة مختلفة ، نظرة تربط بين الفكر والمادة ، بين الحرية السيـاسيـة والاجتـماعيـة ، بين الاقتصـاد والاستقلال السياسي . لذلك حورب هذا الاتجـاه من الاستعـمار كما حاربـه أصحاب الاتجاه السابق ، وان كان مانـال الاتجاه الـوطني الليـبرالي من اضطهـاد أضعـاف مانـال الاتجـاهـات الاخـرى ، وما يصدق على المثقفين من الاتجاهات السابقة يصدق على هذا الاتجاه فلا فرق بين من ثقف ثقافة عربية أو أجنبية .

كذلـك فأن تأثـير الاتجـاه الى الاشـتراكيـة يبـدو أضعف وأقل في أوساط الجماهير من تأثير بقية الاتجاهات لظروف كثيرة ولعوامل اجتماعية وفكرية وثقافية مختلفة لايتسع المجال لمناقشتها .

اذن فالفكـر الاشـتراكي في نشأتـه الاولى يمثـل تيـاراً في الثقـافة الوطنيه ولكنه ضعيف بالقيـاس الى التيارات الاخرى ، وقد اشتد بعد قيـام الثـورة وإن اختلفت ملامحه باختلاف مفاهيم اصحابه وتعدد أرائهم

حول الفكر الاشتراكي ومفهوم الاشتراكية .

هذه - في تصوري - هي الملامح العامة للفكر والثقافة في بلادنا قبل قيام ثورة نوفمبر فما هي ملامح هذا الفكر وهذه الثقافة بعد قيام الثورة ؟؟ .

اذا كان من الصعب في مقال كهذا ان نتتبع بالتفصيل ملامح هذا الفكر أثناء الثورة فلا أقل من ان نرسم صورة لخطه العام الذي يستمر بعد الثورة بل سيتبلور بعد الاستقلال ، والمؤكد ان الثورة حين اندلعت في فاتح نوفمبر 1954 كانت قد رسمت لنفسها طريقاً واضحاً بين هذه التيارات الفكرية ، فقد شبت وسط أمواج من الافكار في بيئة كانت تغلي بنظريات سياسية ومباديء فكرية ومعتقدات شبه أيديولوجية ، ذلك ان البيئة الجزائرية كانت مشحونة بأفكار متشابهه وأخرى متضاربة ، بعضها تجاور وتعايش وبعضها تضارب وتعارض نظراً لتعارض المباديء والاهداف و لعبت الصراعات على الزعامة دوراً كبيراً في هذا الجو المضطرب المؤلم .

ولاحاجة بنا ان نعيد الى الاذهان مرة أخرى موقف الاستعمار من هذه الصراعات وهذه الاتجاهات فقد أشرنا الى انه حارب الفكر الذي عارض وجوده ومصالحه بينما أيد الفكر الذي سانده وسلم بوجوده وبقائه في وطننا ، ومن هنا رأينا كيف كان يغذي الخلافات الفكرية والحزبية وكيف كان يبذر الشقاق بين زعماء الحركة الوطنية وينشر الفتنة والطائفية بين فئات المجتمع وكان يظن أنه استراح من ((المشاغبين))بعد ان راى التشتت والتمزق والتناحر يجتاح صفوف المناضلين والقادة بوجه خاص .

ومن الحقائق التاريخية ان الفكر الاستعماري أصيب بهزة شديدة وباضطراب وهلع حين فوجيء بالثورة ، وليس الاستعمار وحده هو الذي أصيب بذلك ، بل فوجيء بالثورة كثير من زعماء تلك الفترة . وقد كان الناس يتساءلون عن هذا البركان الذي تفجر في حين ان السطح كان هادئاً تماماً يشير إلى عكس ذلك ، وكثيراً ما تخطيء الاحكام التي تكتفي بالمظهر ولاتغوص الى الاعماق وقد أخطأت احكام كثير من الناس على

الشعب الجزائري ان في الداخل أو في الخارج ، وفوجيء هؤلاء واولئك بهذا الشعب الذي قيل عنه انه ((تفرنس)) نهائياً ، فوجئوا بثورته يشعلها منذ اللحظة الاولى بعنف ربما لم يسبق له مثيل في تاريخ الشعوب المستعمرة حديثاً .

وكان على الثورة ان تنظر الى الماضي وتستمد منه العبرة وان تبحث في غمار الاحداث عن السلبيات والعيوب التي عاقت المجتمع عن الانطلاق قبل هذا التاريخ ، ووجدت ان عليها لكي تنتصر بل لكي ينتصر فكرها الجديد ان تعيد النظر في هذا الفكر وفي الثقافة أيضاً . فاذا كان العهد الماضي قبلها قد تميز بالتشتت في الفكر والثقافة وبالتمزق في المواقف والسياسة ، واتسم بالغموض والبلبلة والاضطراب ، اذا كان هذا كله هو العلامة المميزة للمرحلة السابقة على الثورة فان قيامها ينبغي ان يستند على أفكار جديدة ومواقف جديدة وأنه لابد من مؤشر جديد يقضي على الفوضى التي سيطرت على الفكر الوطني زمناً طويلاً .

ومن هنا اعتمدت الثورة على الدعوة الى وحدة الفكر ، على الاتجاه الواحد للفكر الثوري ، فنصوص الثورة منذ قيامها تركز على شعار ((الثورة والاتحاد والعمل)) وتدعوا الجزائريين جميعاً الى الانضواء تحت لواء جبهة التحرير الوطني بصرف النظر عن الماضي وعن المعتقدات المختلفة بشرط ان يعتنقوا هذا المبدأ ، وان يندمجوا في منظومة واحدة هي الوحدة الفكرية .

وقد رفضت الثورة الفكر الذي يتشبث بالماضي أو يتعصب لافكار قديمة لاتخدم الفكر الجديد فلكي تنجح الثورة لابد ان يقضى على التشرذم والتمزق والتناحر ، وليس هناك مبدأ يسند وحدة الفكر سوى العمل المجرد النزيه ، انه المقياس السليم الذي يظهر به المفكر والمثقف والمناضل تعاطفه وايمانه بالثورة وبالشعب ، وهذا ما يميز الثوري عن غيره ، ويميز الوطني الحقيقي عن مدعي الوطنية . وقد أدى هذا الفكر الثوري الجديد الى وحدة شاملة سواء فيما يتعلق بالنضال أو الهدف أو بالرؤ ية للاحداث وتطوراتها .

والذي يتتبع النصوص التي سجلت الفكر السياسي لهذه الفترة أو التي صاغت أفكار الثورة في أشكال للتعبير عنها أو في مجال الاعلام والدعاية ، ان الذي يتتبع ذلك سيجد هذا الخط واضحاً في فكر الثورة ، إذ أنه من غير المقبول في فترة الكفاح الوطني ان تسمح الثورة بالاجتهادات الفردية في الفكر والسياسة خاصة ابان المعركة ، وان تعطي الفرصة للافكار المخربة كي تغزو البيئة وتبذر التفرقة بين صفوف الجماهير التي التفت حول الثورة وضحت بما لديها من غال ونفيس ، وقد كان هذا من بين العوامل التي ساعدت على انتصارها دون شك .

صحيح ان الافكار السابقة على الثورة لم تمت بعد قيامها لان الافكار لاتموت بين عشية وضحاها ولكنها على الاقل في مرحلة الكفاح المسلح قد توارت واختفت وافسحت المجال للفكر ((الوحدوي)) ان صح التعبير .

على ان هذا الفكر الجديد لايتمثل فيما قلنا فقط بل يتمثل أيضاً في ان الثورة اعطته لوناً خاصاً وبعداً اجتماعياًبدل مفهومه المجرد في القديم فالثورة لم تقم لتحرير الانسان فوق هذه الارض من السيطرة الاستعمارية فحسب ولكنها قامت إلى جانب ذلك لتحريره اجتماعيا واقتصادياً . ولتجعله سيداً في هذه الأرض وعلى مافيها من خيرات ، لالمصلحة طبقة معينة ، ولكن لكل أفراد الشعب ، الأمر الذي يجعل وصف هذا الفكر (بالتقدمي) وصفاً حقيقياً وتاريخياً أيضاً .

حقيقة ان هذا الفهم أوهذا الفكر التقدمي لم يكن حدد المعنى مضبوط المصطلح ولكن على كل حال كان يرمز الى شيء جديد في فكر الثورة لانها تبنته في مواثيقها ونصوصها . فاذا كان مصطلح ((الاشتراكية)) لم يظهر في بداية الامر بهذا اللفظ ، فان بديله وهو مصطلح ((الاجتماعية)) قد ظهر حين تتعرض النصوص الى قيام الدولة الجزائرية ومنهجها في الحكم والسياسة ، فعندما تتعرض النصوص الى الناحية الاقتصادية والاجتماعية والى العدالة والمساواة فانها تستخدم

تعابير تؤيد الفكر الاشتراكي وان عبرت عنه بمصطلحات شتى .

غير ان فكر الثورة لايتم تحديده بهذين ((الحدين)) ، الوحدة والاشتراكية كما يقول المناطقة اذا لم يوضع في قالب خاص لانه حينئذ يصبح مضموناً بلا صورة ، وحتى تكتمل صورة هذا الفكر وضعت الثورة حداً للبلبلة التي سادت الفترة السابقة عليها بان أكدت انتماء هذه الثورة الثقافي والحضاري ، هذا الانتماء الذي لولاه لما تحددت هوية الشعب ولما وضحت معالم شخصيته الخاصة ، انها أكدت انتماءه الى ألامة العربية والى الحضارة الاسلامية بالرغم من ان هذا الانتماء كان قد تحدد منذ زمن طويل حين قاوم الشعب الاحتلال الفرنسي ورفض الاندماج ، فانه قد تجسد بعد قيام الثورة بقوة الفعل وبفرض الواقع بواسطة البارود والقوة بدل المطالب والشعارات التي رفعها الوطنيون الثوريون والمصلحون القوميون منذ بداية هذا القرن .

هذه الخطوط العامة لفكر الثورة تتفرع عنها فروع أخرى وتتدفق أليها روافد كثيرة تسهم كلها في رسم الصورة الجديدة لفكر الثورة وثقافتها . وتحقيق هذه الافكار لم يأت بسهولة بل تحققت بفضل النضال الدؤوب وبفضل ارادة المناضلين الثوريين .

وقد خاضت الثورة صراعات طويلة حتى تجسد هذه الافكار ، خاضت صراعاً ضد الاقطاعيين وضد الوصوليين والانتهازيين والمستفيدين من بقاء الجزائر تحت السيطرة الفرنسية ، واعتمدت الثورة في تحقيق أهدافها على أمرين .

الأول : الحسم ، فلا تردد أمام قضية المصير ولاتساهل في المباديء والاهداف ، واستخدمت شعارها ((الثورة فوق الجميع)) خاصة تجاه المتعصبين المغرضين .

أما الثاني : فهو الاقناع تجاه بعض الخصوم ، وبذلك برهنت على ان فكرها مفتوح وليس فكراً متعصباً مغلقاً كما أنها لم ترفض النقد والمناقشة فلم ترغم الناس على الالتحاق بصفوفها وتركتهم يقتنعون بها بعد ان أعطت المثل وقدم ممثلوها البرهان على نكرانهم للذات

وتضحيتهم من اجل الشعب .

وقـد استجـاب لهذا الفكر الجديد المثقفون والكتاب وعبر وا عنه في المســرح والقصـــة ، في المقـال الادبي والسيـاسي ، في الخطب وأجهـزة الاعـلام وعمـومـاً في الانتـاج الذي ظهر اثناء الثورة وان تعددت اساليبه واشكـالـه . ومع هذا فان فكر الثورة باتساعه وشموله لم يتح له حتى الآن ان يدرس بموضوعية وبتفصيل ولم تستخلص منه النتائج ومازال في حاجة الى من يكشف عن قيمـه ومثله ومسـاربـه الكثيرة ، مازال في حاجة الى غربلته ومعرفة العناصر الايجابية فيه والسلبية ومعرفة الدور الحقيقي الذي لعبه المثقفون أثناء الثورة .

وبعـــد . . . فهـذا حديث سقتـه في فترة تحتـدم بالافكـار والآراء ونحن نتلمس فيها الطريق نحو ثورة ثقافية حقيقية ، وهي تحتاج الى ان يقـول المثقف الملتـزم رأيـه فيـما يتصـل بحيـاتنـا الثقـافيـة والاجتـماعيـة والاقتصـاديـة في جرأة ونـزاهـة ، وقـد نختلف في التفسـير أووجهة النظر ولكن لاخـلاف في أن ماذكـرتـه قد عاشـه شعبنـا وهـو يثير فينا التساؤ ل باستمـرار ، كما يشـير الى قضـايـا عاشهـا جيل من شعبنا وما زلنا نعيش بعضها حتى الآن وهي قضايا تمس جوهر وجودنا ومصيرنا كما تمس مصير الاجيـال التي ستأتي بعـدنـا بل ان الجيل الجديد قد لايعرف عنها الشيء الكثير وربما حتى القليل .

واعتقـد ان الـذي يحدد الاشيـاء تحديـداً سليـماً هو أسلوب الحوار والمنـاقشـة والوضوح في الرأي والرؤ ية معاً حتى نحدد موقفنا من القضايا التي أشـرت اليهـا ونقـارن بين الحلول التي قدمها من سبقنا والحلول التي نراها نحن ملائمة .

أمـا دراسـة هذا الفكـر أثناء الثورة بتوسع وامتداده بعد الاستقلال وهل مازال يعيش في بيئتنا بصورة أوبأخرى فهذا ما يتطلب جهوداً أخرى كثيرة ممن يهتمون بحياتنا الفكرية والثقافية والأدبية .

■ ■ ■

جذور الفكر الاشتراكي
في الادب الجزائري

لعل من مسؤليتنا اليوم ليس فقط أن نشارك في إحياء التراث القومي وأن نساهم في الكشف عنه كما فعل الرواد الأوائل ، ولكن مسؤليتنا تزيد عن أولائك بتعميق ما حاولوا الكشف عنه ، والتعريف به إنصافاً وتقديراً لمجهوداتهم القيمة ، ثم إضافة الجديد لما أسسوا ووضعوا لبناته الأولى

ومما لاشك فيه أن هؤلاء الرواد قاموا بدور الاكتشاف ، ولكن ظروفهم السياسية والفكرية والاجتماعية لم تساعدهم على التوسع في حقائق وقضايا عصرهم بمثل ما هو متاح لنا اليوم ، وخاصة في مرحلتنا هذه التي نسعى فيها لفهم الدور الذي لعبه هؤلاء الرواد ، وكذلك لنناقش آراءهم ونضعها في مكانها الصحيح ، وحتى نصل الماضي بالحاضر ونربط الأفكار والمباديء التي نحاول اليوم ارساءها والمباديء التي عمل من أجلها هؤلاء الاوائل .

ذلك ان الاتجاهات الفكرية والادبية وحتى السياسية ، لاتنبت فجأة أو تظهر معلقة في فراغ ثم تختفي بلاسبب ، وانما تنبت وترسخ عندما تكون البيئة متفتحة ومستعدة لظهورها ونموها .

وهذا الحديث انما هو محاولة لتسليط الضوء على جانب هام من حياتنا الفكرية ظهر في مرحلة خطيرة كان يمر بها وطننا .

ففي أوائل هذا القرن وقبل الحرب العالمية الأولى حين بدأت اليقظة تعم أفراد الشعب ، وحين أخذت التيارات الفكرية والسياسية تتصارع في العالم ، كانت تصل أصداؤها الى وطننا . . . ومن أهم هذه التيارات التي غزت العالم وهزته في أواخر القرن الماضي خاصة هو تيار الاشتراكية ، تيار الدعوة والمساواة والعدالة الاجتماعية .

فالشعب الجزائري اذن لم يكن بمعزل عن هذه التيارات ، بل تأثر بها في حدود ظروفه السياسية والاجتماعية الثقافية . واذا كانت الدعوة الى

المساواة قد ظهر لها انصارها في بداية هذا القرن أو ظهر من ينادي بأفكار تحررية أو اصلاحية في الجزائر ، فان الدعوة الى الاشتراكية لم تعدم ايضاً من يدعو اليها بصوت جهير على صفحات الجرائد وبوعي يؤكد قيمة هذا التيار واعتباره حلاً للمشاكل التي كان يعاني منها شعبنا تحت النفوذ الاستعماري .

على انه من الصعب ان نحدد تاريخاً معيناً لظهور هذه الدعوة الى الاشتراكية في القرن الماضي لان المصادر لم تكشف بعد عن دعوة مثل هذه أو عن أشخاص تبنوا الفكر الاشتراكي في الجزائر ، ولكن يمكن ان نؤكد بأن ظهور هذه الافكار في بداية هذا القرن لم يأت دون مقدمات ولكنه كان امتداد للافكار السابقة عليه . . انه لمن الصعب ان يدعو عمر راسم مثلاً في ذلك الوقت بصورة صريحة الى الفكر الاشتراكي ويحاول ان يدافع عن الاشتراكية كحل للوضع الذي كان عليه المجتمع الجزائري من فقر وتخلف واستعمار . . أقول من الصعب ان يدعوا راسم الى هذه الفكرة دون ان يكون قد عبر عن الافكار التي وجدت قبله في بيئتنا ، وان كان هناك احتمال ان يكون قد تأثر بقراءاته واطلاعه على المذاهب الاشتراكية التي ظهرت في العالم في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن

ومهما يكن من أمر فان هذا المفكر الجزائري هو أول من دعا الى الاشتراكية في وطننا بشكل واضح خاصة في جريدة ((ذو الفقار)) التي أسسها عام 1936 (1) .

---

١) « ذو الفقار » : جريدة أسبوعية ذكر ابن العابد الجلالي في كتابه ((تقويم الأخلاق)) أنها صدرت سنة 1914 والصحيح أن العدد الأول منها صدر في 5 أكتوبر سنة 1913 ، ثم توقفت فترة لتعاود الصدور سنة 1914 .

وقد ولد عمر راسم في أوائل العقد الثاني من القرن الماضي بعاصمة الجزائر ، ولم تكن دراسته منتظمة كما أنه لم يواصل تعليمه حتى النهاية ، وانما انقطع في بداية المرحلة الثانوية لأنه فيما يبدو ـ كان بأفكاره التقدمية يصطدم بالشيوخ الذين كان يدرس عنهم ، إذ كان ينتمي لمذهب الامام محمد عبده في دعوته الاصلاحية . على انه تثقف ثقافة واسعة بمجهوده الخاص واستطاع أن يتقن اللغة الام ـ العربية والفرنسية . وكانت نفسه تطمح الى المساهمة في الحركة الفكرية والصحفية ومن ثم انشأ مجلة ((الجزائر)) عام 1908 (1) ولم يظهر منها سوى عددين ثم توقفت ولكنه عاود إصدار جريدة أخرى هي ((ذو الفقار)) التي أشرت اليها سابقاً والتي صدر منها اربعة أعداد فقط . . كما ساهم أيضاً في تأسيس جريدة ((الفاروق)) (2) التي يديرها السيد عمر بن قدور ، ولكنه يبدو ان الخلاف نشب بينهما نتيجة خلاف في الرأي والاتجاه فقد كانت ((ذو الفقار)) تصرح بأنها جريدة إشتراكية بينما كان المعروف عن ((الفاروق)) انها جريدة إصلاحية معتدلة لاتؤمن بالافكار الاشتراكية التقدمية وبتعبير آخر لاتؤمن بالطفرة أو الثورة .

وقد أشار الى هذا الخلاف عمر بن قدور نفسه حين عاودت ((ذو الفقار)) الصدور بعد احتجابها منوهاً برجوعها ودورها في يقظة الشعب بقوله :

« . . واننا وإن كنا نخالف » ذو الفقار في المشرب الذي توخاه (3) فاننا نعتقد تمام الاعتقاد ان الهيئة الاجتماعية عوارض عويصة تنجح في تسويتها الصحف الانتقادية الحادة اللهجة أكثر من غيرها . . وإن جريدة ((ذو الفقار)) بمشربها الانتقادي قد بينت في دورها الأول من

---

1) « الجزائر » : مجلة أسسها عمر راسم بتاريخ 27 أكتوبر سنة 1908 وليس في 1909 كما ذكر ابن العابد وقد كانت تصدر في الأول والخامس عشر من كل شهر كما جاء في شعارها بينما ذكر الدكتور سعدالله ببحثه ((الحركة الوطنية الجزائرية)) انها كانت شهرية .

2) « الفاروق » : جريدة أسبوعية صدر العدد الأول منها في 28 فبراير 1913 ويبدو انها توقفت عام 1915 ثم عاودت الظهور بتاريخ 8 أكتوبر سنة 1920 .

3) أنظر ((الفاروق)) عدد ماي 1914 .

حياتها ضرورة وجودها لمصلحة منكوبي الاجتماع ومساكينه))

ومن غير شك فان أفكار عمر راسم الثورية التقدمية هذه كانت السبب في سجنه ونفيه ، ومن بين الاسباب التي البت عليه أعداءه من الاستعماريين وأذنابهم أيضاً ،و سفره الى مصر حيث أعتبرت رحلته هذه سياسة لابقصد الاطلاع أو الدراسة ووجد فيها خصومه ((الطبيعيين)) فرصة للنيل منه والكيد له .

على أن السبب الرئيسي في الواقع هو مواقفه الصلبة في الدفاع عن آرائه ومعتقداته الفكرية والسياسية ، وقد كانت لهجته في مقالته بالعربية والفرنسية هي سبب سخط أعدائه عليه حتى اننا نجد ـ كما ذكر ابن العابد الجلالي ـ نجد أصدقاءه ينصحونه بالتخفيف من لهجته وحدة أسلوبه في الهجوم على أعداء المجتمع وخاصة تلك المقالات التي ركز فيها الهجوم على الاغنياء الأنانيين وعلى أولئك الذين يستعبدون الانسان بقصد العيش في رخاء .

اشتراكية منبعها الاسلام

وقد كان لآراء عمر راسم تأثيرها في تلك المرحلة ، الامر الذي يجعل من هذا المفكر رائداً للتيار الاشتراكي في الجزائر . وقد لجأ الى إخفاء آرائه ، وذلك باسناده جريدة ((ذو الفقار)) الى الشيخ محمد عبده اتقاء لشر الاستعمار وأعداء التحرر الفكري بناء على نصيحة البعض ، كما يبدو ماذكره ابن العابد الجلالي في ترجمته لحياته ... مما يؤكد من جهة أخرى تأثير هذا المفكر العربي ـ وأعني به محمد عبده ـ في بعض الاوساط الجزائرية المثقفة .

على انه بالرغم من كفاح عمر راسم وصلابته في مواقفه لم يستطع ان يخلق تياراً قوياً يساعده على ان يمكن للفكر الاشتراكي كما استطاع غيره أن يمكن للفكر الاصلاحي في بداية هذا القرن ، الامر الذي اعترف به ابن العابد بقوله :

الا ان حزبه كان ضعيفاً بجانب حزب الموافقين فلم يحصل على طائل))

وإذا كان هذا الحكم قد انصب على عدم فعالية مقالات راسم في الـوقـوف ضد قانـون التجنيـد الاجباري فانه يمكن تعميمه على مواقفه كلهـا وبـالخصـوص في الـدعـوة الى الاشتراكية ، لاباعتباره يمثل حزباً سياسياً معيناً وانما باعتباره يمثل اتجاهاً فكرياً واجتماعياً .

وفكـره الاشـتراكي لايتضـح في مجلتـه ((الجـزائر)) لان شعارها نفسـه لايتعـرض الى ذلـك وإن أشـار الى انهـا : ((مجلة إجتماعية أدبية تهذيبية تصدر في الاول والخامس عشر من كل شهر)) .

وربـما لم يتمكن من إبـراز أفكـاره الاشتراكية في هذه المجلة لانه لم يصدرمنها سوى عددين وتوقفت ، وان كانت كلمة ((إجتماعية)) توحي باتجـاه الجـريدة ، غير ان هذه الكلمة طالما ترددت في شعارات الصحف الجزائرية قديماً وحديثاً .

أما في المرحلة التي ظهرت فيها مجلة ((ذو الفقار)) فقد أحس بان الوقت مناسب لان الحرب على الابواب ، ولهجة الفرنسيين الاستعماريين بدأت تلين حتى تجلب الجـزائـريـين الى جانبهـا ويساعدونها بالتجنيد أو التطوع او المساعدة او الدعاية لها ولحلفائها .

وعلى أيــة حال فان عمــر راسم في مرحلتــه هذه صرح بافكــاره الاشتراكيه دون خوف اومواربة . ففي العدد الاول من هذه الجريدة أي ((ذو الفقار)) يصرح بانها : ((جريدة عمومية اشتراكية انتقادية)) .

فهـو منـذ البـدايـة يحدد اتجـاه الجريدة بانها اشتراكية ، كما يوضح هدفـه من انهـا تعني أيضـاً بأشيـاء أخـرى تتصل باخلاق المجتمع فهو في شعـارهـا يذكـر على لسـانهـا : ((بعثت لاقتـل النفـاق والحسد والتكبر والشك من قلوبهم وأبث فيهم الصدق والتواضع والايمان الخالص وحب الخير لبعضهم والتعاون والاتحاد)) .

فهـو هنـا يؤكـد على فكـرة التعـاون والاتحـاد ، والتعاون احد صفات الاشتراكية ، وهويربط بين رقي المجتمع وبين الوحدة في العمل والهـدف كما يربـط بين التقـدم والاخـلاق ، فهـويعي هذه المباديء كلها ويلح عليها في مقالاته التي نشرها في أعداد الجريدة .

وفي نفس الـوقت يصرح بفكره الاشتراكي الذي يربط بين مفهوم الاشـتراكيـة وبين الاسلام ويهاجم الاغنياء ، فهو في العدد الثاني يصرح بان صحيفته ((تبارز الاغنياء والمقصرين الذين يريدون ان يجعلوا مخلوقات الله وأنظمة الكون آلات يستجلبون بها منافع لهم)) .

فهـو هنـا يركـز هجومه على الاغنياء الذين يستعبدون الضعفاء ، وإذاكان لم يصرح بان المستعمرين يفعلون نفس الشيء ، فاننا نفهم لماذا يفعـل ذلـك بصـورة صريحـة ، كما اننـا نستطيع ان نقارن بين من يستغل الفقــراء من الاغنيــاء ، وبــين من يستغـل الضعفـاء ويستعبـدهم من المستعمـرين ، وبـالـرغم من ان هذا المفكـر حاول ان يتقي شر الاستعمار وأذنابه باسناد هذه الجريدة الى مديرها الروحي الامام محمد عبده ، على حد تعبيره ، وبالرغم ايضاً من أنه حاول ان يتنصل من السياسة فصرح بانها ((مادخلت شيئاً الاأفسدته.)) . . بالرغم من هذا ، فان دعوته الى الاشتراكية دعوة تتضمن السياسة ، فالحديث عن المساواة والعدالة وعن الاشتراكية هو حديث في السياسة دون شك.

على أنه أخذ ينشر مقالات مسلسلة يتحدث فيها عن الاشتراكية بجـرأة واضحـة ، ولكنـه يربطهـا بالـدين الاسـلامي ، وهـو يمهد لهذه المقـالات بمقـدمـة يتحـدث فيها عن الاشتراكية كمذهب ((يهز أوروبا اليـوم)) ويتفـاعـل بانتشـارها في العالم ويبدي تعاطفه الكامل مع العمال ويساند الطبقة الفقيرة الكادحة

ولكنه عندما تحدث عن الاشتراكية كحل لمشاكل المجتمع ، اخذ يضـرب أمثلة من التـاريـخ الاسـلامي كما أيـد آراءه باحـاديث شريفة ، ويفسـر هذه الاحـاديث بما يؤيـد إتجـاهه في الاشتراكية التي لها جذور في الدين الاسلامي .

فالحـديث الشـريف (لافضـل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) يفهمه على انه دعوة الى المساواة والعدالة الاجتماعية ، فهو لايفهمه على انـه العـدل بين الاجنـاس في الحكم وان التقـوى هي المحك بين الافراد بصرف النظر عن الجنس واللون وانما يفهمه على انه مبدأ اجتماعي يسوي

بين الفقـراء والاغنيـاء ، بين البيض والسـود ، بين ذوي الثراء والمعدمين . . وكـذلـك يفعـل في الحـديث الشـريف (مثـل المـؤمنـين في توادهم وتـراحمهم كمثـل الجسـد الـواحـد ان أشتكى منـه عضـوتداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى) ان هذا الحديث في رأيه يمثل فكرة التعاون في أسمى مظـاهـرهـا ، والاشـتراكيـة تمثـل هذا التعاون والمساواة ، ويهاجم الاغنيـاء الـذين لايساعدون الفقراء ، ويستخلص من هذا بان المسلمين الـذين لم يعملوا بها في دينهم من دعـوة الى الخير وحب المسلم للمسلم هم سبب هذا التخلف والتفـرق . فالفساد والركود والجمود الذي ران عليهم ردحاً من الزمن هو سبب انفراط عقدهم . . ذلك ان ... فرد بات يفكـر في نفسـه فقـط ولا يفكـر في غيره ، حيث طغت الفردية مما ادى الى ظهور تلك الهوة الكبيرة ((بين الاغنياء والفقراء)) على حد تعبيره .

ثم هو لايكتفي بأمثلة من الحـديث الشـريف يدلـل بها على ان الاسـلام يدعـو الى الاشـتراكيـة بل يضـرب الامثلة من التاريخ العربي الاسلامي أيضاً . . فهناك امثلة كثيرة من التاريخ تؤكد فكرة الاشتراكية ، فالامـوال كانت تجبى من الاغنيـاء ويـؤخـذ الخـراج والجـزيـة لصالح المسلمـين الفقـراء فكـان هنـاك تعـاون بين المسلمـين وكأنهم ((عائلة واحدة)) كما يقول بالنص .

والامـر الـذي يلفت النظـر في هذا المفكـر الـرائع هو فهمه العميق لشخصيـة ابي ذر الغفـاري وآرائه الثورية المبكرة في الاسلام ، ويتحدث عنـه في اعجـاب ظاهر ويشيد بمواقفه التي ناصر فيها الفقراء والتي اشتهر امـرهـا في الاسـلام ، فقد كان يقف ضد مطامع الاغنياء ، بل وقف ضد الامـراء في عهـد الخلفاء الراشدين ، ويحلل جرأة هذا الصحابي في الحق وينعته بانه ((أول اشتراكي في الاسلام)) .

ولاتقتصـر أمثلتـه على التـاريـخ العـربي الاسلامي ، بل يضرب امثلة من التـاريـخ الحـديث فيتحـدث عن امرأة انجليزية كانت مثالاً في عطفها على الفقراء . . كما يتحدث عن أمرأة مصرية كان لها الفضل في بناء الجامعة المصرية .

وهـو لا يـكـتـفي بمثـل هذه الامثلة أو الاحـاديث ليثبت بها ان الاشتراكية لها جذور في الاسلام أو أنها ضرورية فحسب ، بل يصرح في ختام احد مقالاته،بقوله : « نعم الاسلام دين اشتراكي لكن من يعمـل به ؟ أو هل من أغنيـائنـا من ي‍َمـاد الى تعـاليمـه ومبـادئـه ؟ » .

والواقع ان هذا الرائد لو وقف فهمه للاشتراكية عندّ هذا الحد لحق لنـا بان نعتـبره رائـداً لها ، لكنـه يسـوق آراء كثـيرة تؤكـد وعيـه بالفكـر الاشـتراكي واتجـاهـاته وتياراته المختلفة وتؤكد فهمه العميق للصراعات التي تحدث بين الطبقات . فهويصرح بما لايدعو مجالاً للشك بانه مطلع على مختلف النظـريـات التي دعت الى الاشـتراكيـة ، يصرح : ((سوء توزيـع الثـروة يؤدي حتـماً الى الاشـتراكية)) فهويدرك بأن الصراع بين الطبقـات انـما ينشأ من جراء البـون الشـاسـع بين طبقـة الفقـراء وطبقـة الاغنيـاء ، وان سوء توزيـع الثـروات يؤدي الى التطاحن ، وبالتالي الى الاشتراكية ، كحل يسوي بين المالكين والمعدمين . . وهذه نظرة متقدمة جداً في وقت كانت الجـزائـر فيـه تبحث عن نفسهـا ويسعى ساستها الى المساواة بين الفرنسيين والجزائريين في المعاملة والتمثيل الانتخابي واحترام الدين والاحكام الشرعية .

فبينـما كان هؤلاء يفكـرون في الحـل السياسي الاصلاحي ، كان هذا المفكر يفكر في الحل الاقتصادي ، وبالطبع فان الحل الاقتصادي هو في صميمه حل سياسي في الدرجة الاولى .

وهناك ما يؤكد وعي هذا الرجل بالقضايا التي تتصل بالاشتراكية وبـاختـلاف اتجـاهـاتهـا ومذاهبها في ماتعرض له من الحديث عن العمال حيث طالب بتحـديـد ساعـات العمـل ، وهاجم أولئك الذين لم يفهموا ((معنى المذهب الاشتراكي فحاربوه ووقفوا ضده)) .

على انه يفرق بين اتجاه للاشتراكية وآخر فيتحدث عن فهم الالمان للاشـتراكيـة وفهم الفـرنسيـين لها فيـذكـر : ((اشـتراكيـو الالمان ليسوا كأخـوانهم الفـرنسيـين ، بل انهم وطنيـون قبـل كل شيء)) فهذا المفكر الرائد كان يفرق بين الاشتراكية الخيالية والاشتراكية القومية والاممية .

وهو وان كان لايوضح موقفه من هذه الانواع للاشتراكية الا انه فيما يفهم من مقالاته يتعاطف مع الاشتراكية في الاسلام ويؤكد على ارتباطها بالوطن اي انه لايدعو الى فكرة اممية عالمية . . وغاية الامر انه يتعاطف مع الفكر الاشتراكي بصفة عامة ، ولكنه يؤكد ـ كما قلت ـ على الاشتراكية الاسلامية التي ذكرها في مناسبات مختلفة كثيرة . . واذا وجدنا في مقالاته ما يشير الى اعجابه بالاشتراكية العالمية فانما كان اعجابه هذا منصباً عليها باعتبارها طريقاً لتحرير الفقراء من الفقر والحاجة ، أما الحاحه الدائم فقد كان على الاشتراكية المرتبطة بالدين الاسلامي .

ومما يلفت النظر ايضاً لدى هذا المفكر هو هجومه على رجال الدين الرسميين المتزمتين في مواقف كثيرة واعتبرهم مسؤ ولين عما يتخبط فيه الفقراء من حاجة وتخلف ، بل يتهمهم بانهم ((يمنعون الامة من التغذي بالعلم ليكون الكل عبداً لهم يستخدمونهم في شؤ ونهم)) .

ومنشأ هذا الهجوم هو موقف هؤلاء ضد الافكار التقدمية او الاصلاحية . وهناك من الدلائل ما يشير الى انهم حاربوه اثناء تعليمه عندما كان يدعو الى الاصلاح على طريقة محمد عبده في دعوته الى الرجوع الى الدين الاسلامي ولعلهم كادوا له حتى دخل السجن . . ويبدو ان خوفه من هؤلاء كان هو السبب ـ كما أشرت في اسناده جريدته الى الشيخ محمد عبدة التي نقل على ظهرها هذين البيتين له :

ولست أبالي أن يقال محمد
ابل أم قضت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه
أحاذر أن تقضي عليه العمائم

ويعلق عمر راسم على هذين البيتين بقوله : ((يعني العلماء الجامدين ، ونحن نريد ابناء المرابطين وأصحاب الرود نقوط)) ؟ .

ولاشك انه أثار ضجة كبيرة بآرائه ومواقفه ضد هؤلاء جميعاً وضد الرجعيين من سياسيين ورسميين ورجال دين متزمتين ، فوقفوا جميعاً ضده

وضـد أفكـاره وحـاربـوه بشراسة وربما كان سبب تخفيه تحت اسم مستعار عنـدمـا كان يوقع معظم مقالاته باسم ((ابن منصور الصنهاجي)) وربما كان هذا اتقـاء لشـر هؤلاء وسخطهم عليـه ، ولكنـه أحيـانا أخرى كان يمضي باسمـه الحقيقي الامـر الـذي ربما فهم منه البعض انهما شخصان مختلفـان والحقيقـة أنهـما أسـمان لشخص واحد هو عمر راسم نفسه . وقد أكد هذا هو نفسه في مجلة ((الشهاب)) العدد رقم 28 سنة 1927 ففي هذا العـدد تبرأ راسم من مقـالاتـه التي كانت تصدر في جريدة ((البلاغ الجـزائـري)) بامضـاء ((الصنهـاجي)) إذ يخشى أن يظن القـراء أنه هو صاحب هذه المقـالات فسـارع إلى التـبرء من ذلك لما عرف عنه أنه كان يكتب تحت هذا الاسم .

وكيفـما كانت الاسباب التي دفعت هذا الكاتب الى التخفي تحت هذا الاسم ، وكيفـما كانت اسبـاب سخط اعدائه عليه فان الذي لاشك فيـه ان افكـاره التقـدميـة هي احد الاسباب الرئيسية لهذا السخط ، وان هذه الافكار هي التي تجعل منه بحق رائداً للفكر الاشتراكي في الجزائر .

■ ■ ■

الفكر الاشتراكي القومي
في النثر الجزائري
- 2 -

تحدثت في الدراسة السابقة من جذور الفكر الاسراكي في الأدب والصحافة الجزائرية وعن المفكر عمر راسم أحد رواد هذا الفكر في مطلع هذا القرن واستعرضنا بعض آرائه التقدمية المبكرة .

ولكي تكتمل صورة هذا البحث لابد من التعرض لآ رائه الاخرى التي تعالج قضايا مختلفة كانت ولازالت محل نقاش واهتمام من الكتاب ، ولابد ايضاً من الحديث عن تيار الاشتراكية في النثر الادبي الجزائري المعاصر .

وعمر راسم ايضاً من بين القلائل - في ذلك الوقت بالذات - الذين هاجموا « المتفرنسين » سواء في المشرق العربي أو في الجزائر ، رغم انه كان يكتب بالفرنسية واحد الذين ثقفوا ثقافة أجنبية واسعة ، ولكنه درس الفرنسية كلغة تساعده على الاطلاع والمعرفة ومتابعة ما يجري في العالم ، وفي نفس الوقت اتخذها سلاحاً يدافع به عن وطنه وآرائه وعن الاسلام . وبذلك كان احد الجزائريين الرواد في التفريق يبن اللغة كوسيلة وبين الاندماج في قومية أخرى أجنبية بل ينتقد الجزائريين الذين يقلدون الاجانب .

ففي العدد الثالث من جريدته ((ذو الفقار)) يهاجم هؤلاء المتفرنسين فيقول : ((ان متفرنجي الشرق يريدون ان يكونوا (افرنج) ، أما متفرنجونا ، يريدون أن يكونوا يهوداً ، ايهما أكفر وانجس وأرجس ، خيب الله سعيهم ولعنة الله على جميعهم)) .

وهذا مايفسر دعوته الملحة الى تعليم اللغة العربية القومية التي ((أصبحت كأنها لغة ميتة في وطنها)) ويسوق مثلاً على حالة اللغة العربية في وقته ، فيذكر بأن فرقة تونسية جاءت الى الجزائرومثلت مسرحية بالفصحى ((لم يفهم شيئاً منها الا القليل كالتلاميذ الصغار فقط)) .

فهذا الحكم يصور حالة العربية في عهده ، ولكنه في نفس الوقت يصور إحساسه باللغة كأحد المقومات الاساسية للشخصية القومية للجزائر .

ولاينسى دور اليهود والصهيونية في تخريب الروح المعنوية للشباب الجزائري ودور الصهيونية ايضاً في دعوتها الى وطن قومي يهودي في فلسطين . . . ووعيه هذا يدل على فهمه العميق للصهيونية كفكرة عنصرية مخربة .

وقد تفطن لهذا في وقت مبكر جداً ، قبل ان يظهر وعد بلفور وقبل ان تتضح أهداف الصهيونية للكثيرين من المثقفين الجزائريين في تلك الفترة ، فنراه يعلق على مقال نقلته جريدة ((ذو الفقار)) بتاريخ 28 جوان عام 1914 من جريدة ((المنار)) تحت عنوان ((المسألة الصهيونية)) يعلق عليها بقوله : ((ان التفاهم مع الصهيونية مستحيل لان في ذلك (اعتراف) بزعامتهم ، والبلاد المقدسة أشتراها اباء العرب بدمائهم . .)) .

ويربط بين اسلوب التخريب لدى الصهيونية عامة وبين محاولة اليهود في الجزائر تخريب روح الشباب الجزائري ، فيشن هجوماً عنيفاً على اليهود الذين يفتحون خمارات للجزائريين ويقول : ((اما في الجزائر فان اليهود هم وحدهم الذين اخذوا تشتيت شملنا ونهب ارزاقنا بواسطة وباء الخمر وقد نالوا الان مبتغاهم وصرنا لهم اسارى ،وعبيداً(1) .)) .

ويربط ايضاً بين الجزائر والاسلام سواء في حديثه على الاشتراكية - كما ذكرت - أو في حديثه عن الاخلاق والدين والمجتمع ، وعن نهضة الشعب ودور الاسلام الصحيح في التقدم .

وهو ايضاً لاينسى التاريخ الوطني حتى يوقظ الاذهان ويبعث في الشباب الشعور بالقومية ويغذي فيهم روح الوطنية .

ففي مقال في نفس العدد السابق يتحدث فيه عن تاريخ الجزائر تحت عنوان : ((صفحة من تاريخ الجزائر)) يتعرض فيه لاسباب

---

1) يلاحظ في مقالات عمر راسم بعض الاخطاء التي يلاحظها القارىء وغالب الظن انها نتيجة الطبع .

احتلال الجزائر سنة 1830 ويذكر بان التفكير في هذا ليس وليد سنة احتلال أو قبلها بقليل بل ان التفكير يرجع الى عهد نابليون بونابرت الذي فكر في غزو الجزائر وينقل رسالة من نابليون موجهة الى علي باشا داي الجزائر بعد ان يترجمها هكذا :

((ان لم يعمك الله فاعلم ما انا وما أقدر . واذا لم ترضني وتجب مطلبي ، انزل أرضك بثمانين الف جندي وأهلك ملكك واهلك وحاشيتك . تدبروا في هذه الرسالة لان عزيمتي لاتقبل التغيير)) .

ويعلق عمر راسم على هذه الرسالة بسخرية بالغة حيث يشير الى روح التعالي والغطرسة التي تبدو في لهجة نابليون وهو في هذا المقال الطويل يحلل طمع الفرنسيين في الجزائر ويعدد الاسباب المعروفة للاحتلال ولكنه يضيف سببا رئيسياً وهو ان العامل الاقتصادي كان من اهم العوامل التي دفعت فرنسا الى احتلال الجزائر .

وهناك قضايا كثيرة عالجها في هذا المقال وفي غيره من مقالاته التي يضيق المقام عن عرضها والتعرض لما فيها من آراء قيمة تبرز مكانة هذا الرائد في تاريخ فكرنا الاشتراكي والسياسي بعامة .

على ان صورة هذا البحث لاتكتمل ونحن نناقش الفكر الاشتراكي في النثر الا بعرض آراء أحد الرواد أيضاً في كتابه القصه الجزائرية ، وأعني به محمد بن العابد الجلالي الذي يبدي في ترجمته لحياة عمر راسم ـ تعاطفاً مع أفكاره مما يؤكد أنه كان يمثل امتداداً للتيار الاشتراكي في الفكر الجزائري .

ونحن ـ وان كنا لانملك كل ماكتبه هذا الرائد ـ الا اننا من خلال ما نلمسه في بعض قصصه القصيرة نستطيع ان نؤكد بانه كان يتعاطف مع الفكر الاشتراكي ، وان كان هو الاخر أيضاً يربط مفهوم الاشتراكية بالدين الاسلامي كما يربط الصراع الذي يحدث بين الطبقات بسوء توزيع الثروة وبنظرة الاقطاعيين الى الطبقة المعدمة ، فهو في احدى

صوره القصصية يناقش فيها قضية اجتماعية خطيرة قضية الخلاف بين الطبقات وخاصة نظرة الاقطاعيين الى البسطاء من الناس

وقد استخدم فيها شكلاً بسيطاً يعتمد على الحوار المباشر ، حوار يدور بين اقطاعي وابنته المثقفة التي تقف موقف المعارض لافكار أبيها وآرائه . . . فوالدها يؤمن بمنطق القوة ومنطق الغنى والثروة ، وان هذه الثروة انها خلقت لطبقة من الناس وهي كل شيء في الحياة ولاشيء غير الثروة والقوة .

وتقف ابنته موقفاً مغايراً ومناقضاً لهذه الآراء لانها تؤمن بالانسان وبحقه في الحياة والرفاهيه والعلم .

وتبدأ هذه الصورة القصصية بوصف لسهول ((متيجة)) ثم تصف قصراً يقع على ربوة هناك يسكنه أحد الاثرياء مع زوجه وأولاده وبناته يستمتعون بالدفء وبصوت المذياع الذي ينقل لهم الاغاني العذبة . ويبدأ الحوار عن ((ماركوني)) مخترع المذياع ، وعن ((اديسون)) مكتشف الكهرباء ويكون الحوار في البداية رتيباً اذ يدور حول المخترعات الحديثة ، ثم تعلو نبرته بعد ذلك حين يدور حول الثروة والجاه والقوة .
وبالطبع فان هذا الثري يسخر من الضعفاء ، يسخر من خادمه ((مسعود)) الجاهل الذي لايعرف شيئاً من شؤون الفلاحة كذلك يسخر من زوجته الفلاحة العاملة التي لاتعرف شيئاً هي الاخرى حتى في تربية أولادها ، لكن ابنته تعارضه في افكاره هذه ، فتدافع عن الرجل وزوجه ، وينطلق الحوار ، فنرى اباها يسخر:

ـ مالذي تعنين بلفظ الانسانية ؟ هنا يجب الاحتراز في فهم معنى هذا اللفظ . . . اذا كان لفظ الانسانية في نظرك يشمل تلك الطبقات المنحطة الجاهلة ، فاديسون وماركوني اعقل من ان يجهدا أفكارهما في اسعاد تلك الكمشة المبتذلة التي ماخلقت الا للسخرة . . .)) .

ويستمر الحوار بين الاب وابنته ، فنرى هذا الرجل يدافع عن الفكر الطبقي ويدعو للثروة والجاه والقوة ويحاول ان يدفع ابنته الى الايمان بذلك . . ولكن الفتاة تعارضه بقولها :

- ((اذا كنت قوية في نفسي الى هذا الحد فما معنى خدمتهم لي ؟ ثم هل الجهل والانحطاط صفتان قائمتان بتلك الطبقة دون غيرها لاتستطيع الانفكاك عنهما ؟ وهل الرفعة والعلم وقف على طبقة دون طبقة)) . ففي هذا الحوار نلمس النظرة الطبقية ، ونلمس تفكير الجيل الجديد ، وهذه الصورة القصصية وان كانت ضعيفة من حيث شكلها واسلوبها ، فان قيمتها ليست في طريقة التعبير والمعالجة لفكرة الصراع بين الطبقات ، وانما قيمتها في افكارها التقدمية الاشتراكية . . كما أن قيمتها تظهر في النظرة المختلفة بين الجيل القديم والجيل الجديد ، وهي أيضا تثبت بأن رياح الفكر الاشتراكي أخذت تهب على المجتمع الجزائري فعبر عنها كتاب وأدباء .

على أن فكرة الاشتراكية تبدو لابوصفها فكرة طبقية فحسب . بل تظهر في صورة اخرى قصصية لهذا الكاتب بشكل مباشر سافر يدعو فيها الى المساواة وتوزيع الثروة توزيعا عادلا .

يتمثل ذلك في صورة اخرى - أوعلى أدق تعبير - في موقف جانبي ،من هذه الصورة التي كتبها ابن العابد في سنة 1937 تحت عنوان ((الصائد في الفخ)) ،والحادثة لاتعنينا هنا ولا شخصياتها ولا أسلوبها وانما تعنينا الدعوة الى الاشتراكية .

وهو في نفس دعوته هذه يختار مناسبة العيد ليربط بين الدين والاشتراكية ، وهو كذلك يختار شخصية ((ابن زلماط)) المعروفة ، فقد خرج هذا الجزائري على السلطات الاستعمارية وبقي سنوات بجبل الاوراس يهدد حكم فرنسا ومصالحها ، كما يهدد اتباعها والاغنياء الذين كان ينتزع منهم الاموال ليوزعها على الفقراء . . . ويأتي الحوار بين بطل القصة وبطلتها ليبرز الفكرة التي يهدف اليها الكاتب ولكنه حوارأشبه مايكون بالخطبة الوعظية يضعه الكاتب على لسان الفتاة التي تتحدث عن ابن زلماط حين جمع اعيان القرية وأغنياءها والقى عليهم درسا في الاسلام

والاشتراكية .

ـ ((أتعلمون أن غدا هو عيد الأضحى المبارك وأنه يوم كرم الله فيه الامة الاسلامية وجعله مظهرا من مظاهر عنايته بها فيه تجتمع القلوب وتزول الاحقاد ويتجلى فيه السرور بأحلى مظاهره وتبدو فيه الاشتراكية الحقة في أبهى حللها ؟ فقالوا : نعم . .)) .

ففي هذه الفقرة يصرح الكاتب بفكرة الاشتراكية ، ويربطها بالدين فيختار المناسبة الدينية ليظهر علاقة الدين الاسلامي بالاشتراكية كما فعل قبله عمر راسم .

والكاتب ـ ابن العابد تؤرقه هذه الفكرة ـ فكرة الاشتراكية فيشير في موضع آخر الى مشكلة البطالة في صورته القصصية ((السعادة البتراء)) (1) حيث يرى ان السعادة لاتتم الا اذا كان الشعب كله يعيش في رخاء ورفاهية ويتمتع بالعمل والحياة الكريمة .

وربما يطول بنا الحديث لو تتبعنا جذور الفكر الاشتراكي في النثر الجزائري ، وغاية ما نؤكده بأن فكرنا قد تأثر بهذا التيار في بداية هذا القرن . ونحن ، وان كنا لانستطيع أن نحدد مدى تأثير هذا الفكر في المجتمع الجزائري ومدى تغلغله في الاوساط الشعبية ، فان الذي نسجله هو أن كتابنا وأدباءنا لم يكونوا بمعزل عن قضايا عصرهم ، ولم يكونوا بعيدين عما يجري حولهم . وقد حاول كل حسب فهمه وادراكه لمشاكل المجتمع ان يعمل جاهداً للبحث عن حلول للمشاكل التي كان يشعر بها وطنه وتضطرب بها حياة الشعب . ولذا لابد ان نسجل بادرتهم لهذا الجانب من فكرنا التقدمي ، واذا كانوا لم يقدموا نظريات مكتملة في أحاديثهم عن الاشتراكية فهم قد حاولوا ذلك وحسبهم انهم أثاروا هذه القضايا وعلى من يأتي بعدهم أن يضيف الجديد . وبالنسبة لعمر راسم وابن العابد الجلالي اللذين تعرض لهما هذا البحث فاننا نضيف لهما فضلاً آخر الى جانب ريادتهما في ميدان الاشتراكية والدعوة اليها ، وأعني به ريادتهما ايضاً في مجال الصحافة العربية في الجزائر بما اسسا من صحف وبما ساهما في نشرها ودعمها بما كتبا من مقالات وانتاج سياسي وأدبي .

وبعد :

---

1) نشرت هذه الصورة القصصية في الشهاب بتاريخ 1935 .

فان هذا البحث لايدعي بأنه ذكر كل شيء في هذا الموضوع ، كما انه اقتصر على رواد الفكر الاشتراكي في النثر فقط ، وربما تتاح الفرصة لي أو لغيري - لبحث هذا الفكر في الشعر الجزائري الحديث . وكم كان بودي ان أعثر على ماينير الطريق للباحث الذي يتعرض لبحث تيار الفكر الاشتراكي في الجزائر ممن درسوا هذه الفترة الهامة التي حفلت بشتى الاتجاهات ومختلف التيارات الفكرية ، لان هذه الفترة التي تمثل الثلث الاول من هذا القرن تعبر في اعتقادنا عن جذور الفكر الجزائري الذي تبلور بعد ذلك واتضحت معالمه وانعكست آثاره فيما ظهر من حركات سياسية فكرية . فهي اذن فترة خصبة غنية بدلالاتها وأفكارها جديرة بعناية الباحثين أكثر مما مضى .

■ ■ ■

مفاهيم مستعارة

كثيراً ماتظلم المفاهيم ، وكثيراً مانتورط في استخدامها فيما لم توضع له ، فنضعها في غير موضعها ، ونستخدمها في غير محلها .

ويكثر هذا الخلط بين المفاهيم في حياتنا الثقافية ولدى بعض المثقفين الذين لايترددون في اطلاق مفهوم على مفهوم اخر ، ووضع كلمة أو لفظة مكان أخرى دون تصور واضح لمعناها .

وهذه الفوضى في اطلاق الكلمات على عواهنها تحدث البلبلة والاضطراب ليس فقط في الافهام وادراك الاشياء وانما تفعل هذا في تصورات الناس ومعلوماتهم ومعارفهم فينشأ الذي لايفيد الثقافة ولايساعد على ادراك الحقائق وتحديدها .

من هذه المفاهيم مايطلقه البعض على اللغة العربية من كلمات ومصطلحات ، وما يطلقونه على الادب العربي من ألفاظ ومفاهيم كمصطلح الكلاسيكية . فبعض المثقفين يطلقون هذا المصطلح على اللغة العربية الفصيحة التي تقابل عندهم اللهجة العامية أو الدارجة الامر الذي يجعل من اللغة شيئا خاضعا للذوق .

ومن البديهي ان اللغة لاتخضع للذوق الفردي الشخصي بقدر ما تخضع لروح الجماعة ولاصطلاح الناس عليها وعلى رموزها . فالجماعة هي التي تحدد معاني الالفاظ وبالتالي تحدد المعاني ويسهل التفاهم بين الناس .

ولو كان أمر اللغة ، راجعا الى الذوق الشخصي لعمت الفوضى بين الناس ولما استطاعوا ان يتفاهموا اطلاقا .

وربما كان اتفاق الناس على هذه اللغة أو تلك وعلى هذه الالفاظ ومدلولاتها ، هو سبب هذا الاحترام الذي تتمتع به اللغة لدى اي شعب وعند أية أمة فوق أن اللغة مقوم اساسي من مقومات الشعوب والامم .

ولكن يبدو الامر عندنا على العكس ، فاحترام الكلمات والالفاظ والمصطلحات هو أخر شي نلتفت اليه سواء كنا مثقفين أو غير مثقفين وهذا في تقديري سبب ما نعاني من اضطراب في مقاييسنا واحكامنا

ومصطلحاتنا . حتى اننا نضع عنواناً لمضمون وموضوع مختلف تماماً .

كما اننا نطلق الحكم دون تفكير وتدبير . والمثل الصارخ في هذا ـ كما ذكرت ، اطلاق لفظ الكلاسيكية ، على اللغة العربية الفصيحة .

فعندنا طائفة من المثقفين اذا ما تعرضت للغة العربية وادابها ، تصوروا في اذهانهم لغة الجاهلية وعصور اللغة والادب الماضي وينسحب تصورهم هذا حتى على الفصحىَ في العصر الحديث ، سواء في الجزائر أو في غيرها من البلدان العربية الاخرى .

فاذا تحدثوا عن الادب العربي اوعن اللغة العربية ، لايترددون في وصف اللغة الفصحى بانها اللغة الكلاسيكية .

ولاشك ان هذا الفهم المستعار ، استعير من الاداب والمصطلحات الغربية ولايعني هذا اننا ضد مايأتي من الغرب من مصطلحات أو لغات أو آداب ، أومفاهيم ، وانما يعني اننا نحتاج الى ما يتمشى وتاريخ لغتنا وآدابها ، والى مايساعدنا على فهم الادب وروح اللغة ، اي ان استعارة الشيء ينبغي ان تكون لابنية التقليد والقصر ، وانما تكون بقصد الفهم والدراسة والبحث ، حتى لانستعير الاشياء ونضعها بالمقلوب ، ولذلك نخلق البلبلة والاضطراب في أذهان الناس وتصوراتهم .

والمعروف ان الكلاسيكية كاصطلاح ، انما اطلقه النقاد والدارسون ، على الادب في القرن السابع عشر ، الذي سادت فيه النظرة السلفية للادب والفن .

فكان الكتاب يتبعون قواعد السلف ، ويطالبون بالرجوع الى الاداب اللاتينية والاغريقية ويكتبون على منوالهم ويصرون على تصوراتهم ورؤاهم .

ذلك ان النماذج القديمة قد سيطرت على ادباء القرن السابع عشر الذين كانوا يرون فيها المثل الذي ينبغي أن يحتذى ويقلد .

وهذه النظرة لم تكن تقصد اللغة فحسب ، وانما كانت تقصد الاسلوب وطريقة الاداء ومن هنا اتسمت أساليب الأدباء الكلاسيكيين بالرصانة والجزالة ، واتسمت لغتهم بالجزالة والاحتفال بالقوالب

الموروثة ، كما اتسم الادب بالوضوح والهدوء في التعبير ، حتى اطلق على أدب تلك الفترة الادب المدرسي ((لأنه كان ينزع الى الماضي ولايعتنق الطفرة والتجديد)) .

وانما يرى في اساليب القدماء النموذج الحقيقي للصياغة والتعبير والتصوير .

فهل هذا مانجده في الادب العربي وفي اللغة العربية ؟

الواقع انه في فترة خاصة يصح اطلاق هذا المفهوم وهذا المصطلح على الادب واللغة العربية ، ولكنه في فترة أخرى لايصلح الاطلاق ولا الحكم بهذا المفهوم .

على انه لابد ان نفرق بين فترتين متمايزتين للادب العربي واللغة العربية .

الاولى : ان الادب العربي القديم ، منذ العصر الجاهلي حتى النهضة الحديثة ، يمكن ان نطلق عليه هذا المصطلح ، كما يمكن ان نطلقه على اللغة الفصحة ، ذلك ان الاحتفال بالاسلوب والعناية باللغة وطريقة استخدامها ، شعراً أو نثراً ، كان هو السمة الغالبة على الادب واللغة معاً في هذه الفترة .

أما في المرحلة الثانية : مابعد النهضة ، وبعد الاتصال بالثقافة الغربية والاتصال بأدابها فان اطلاق هذا المصطلح على الادب وعلى اللغة الفصحى فيه ظلم لها وفيه اسراف وتقليد للمستشرقين الذين يرى بعضهم في العربية لغة كلاسيكية .

فاللغة العربية بعد النهضة لم تصبح تلك اللغة الجزلة الصعبة لم تصبح لغة امريء القيس والمتنبي ، ولا لغة الهمذاني والحريري ، تلك الغة التي يضطر المرء في فهمها للرجوع الى القواميس في كل كلمة يقرؤها الشاعر او الناثر .

وانما أصبحت لغة يفهمها المتعلمون ولاأقول االمثقفون ، لانها تطورت بتطور حياة. الناس وظروفهم الفكرية والمادية . فسايرت حياتهم وواقعهم لانه واقع يختلف عن القدامى في التجربة والرؤ ية والتعبير ، وبذلك رأينا صنفاً جديداً يظهر ومفردات عديدة تجد وتحدث بعد ان لم تكن موجودة في الزمن الماضي .

ولا اعني ان اللغـة الفصيحـة تطـورت لانها تعبر عن مستحدثات العصـر فهـذا شيء طبيعي وموضوع آخر ، وإنما اعني ان اللغة اصبحت تتمتـع بقـدر من المـرونة والبساطة والسهولة الامر الذي تمكن معه الادباء بان يعبر وا عن خلجات افكارهم وعن تجاربهم مها تعددت وتنوعت وعن مكنونات انفسهـم مهما تعقدت وتشعبت .

ولاأظن أن هناك من يقارن بين لغة طه حسين وبين لغة الخوارزمي وبـديـع الـزمان الهمذاني لأن طه حسين ثار على الكلاسيكيين والسلفيين وطـالبهم بأن يكتبـوا بلغة، عصـرهم وواقعهم وبيئاتهم وانيسايروا روح العصـر ولايعيشـوا مع المـاضي ، كما ثار العقـاد ونعيمـة وجـبر ان والمازني وغـير هم على اولئـك الـذين يعيشـون باجسـامهم في عصـر وبارواحهم وعقـولهم في عصـر اخـر فيكتبون باقلام غيرهـم ويعبر ون بلغة السلف ، وكـان لهذه الثـورة أثـرهـا في الادب والثقافة عامة ، فتحررت اللغة وتحرر معها الادب .

ومن هنـا ظهـرت مذاهب كثـيرة مختلفـة في الادب العربي ، مثلما ظهـرت قبـل ذلك في الادب العربي ، لاعن تقليد وانما لظروف واسباب ليس هذا مجال الحديث عنها .

ولم يقـل احـد بان الجيـل الجديد الذي استحدث مذاهب جديدة وتعابير جديدة لم يقل احد بان لغة هذا الجيل الجديد لغة كلاسيكية لمجرد انها لغة فصيحة تعتمد على القواعد ، مثل النحو والصرف والبلاغة .

لأن أية لغـة كيفـما كانت لابـد لها من هذه القـواعد ، والثورة التي قامت على الكـلاسيكيـة لم تقم على القـواعـد النحـوية وانما كانت على القواعد ، الفكرية ، على الاساليب والافكار ، على الموضوعات .

فثـورة الـرومـانسيـة مثـلاً طالبت باحـترام تجربة الفرد وشخصيته واحترام مشاعره ونظرته ، ثارت على الرصانة والتعقل ، على لغة العقل والاتـزان واذا كانت قد استخـدمت صيغـاً جديـدة واشتقـاقـات جديدة وأخيلة جديـدة ، فانهـا لم تكفـر بأدوات اللغـة وقـواعدها . وهذا مافعله الكتاب والادباء العرب منذ النهضة الحديثة .

فقد نادوا بلغة تساير روح العصر وروح النهضة الحديثة ، وطالبوا

بأن يكـون لكـل كاتب اسلوبـه الخاص وإن يعبّر بلغة واقعه الذي يعيش فيه .

واذا كانت هذه الثـورة لم تقم عنـدنـا في الجـزائـر لظـروف خاصـة بثقـافتنـا الوطنية ، فان هذا لايعني اطـلاقا أن الجزائر تجمدت حتى اليوم واللغـة العـربيـة فيهـا هي لغـة الاقـدمـين أو اللغـة الكلاسيكية كما يحلو للبعض ان يطلقوا هذا المصطلح عليها بمناسبة أو غير مناسبة .

فاللغـة الفصحى في الجـزائـر لم تجمـد أو توقف تطـورها كما يتصور البعض وانما تطورت تطوراً واضحاً .

صحيـح ان الحـركـة الاصلاحية في بداية امرها قد نادت بالرجوع الى المـاضي وذلـك باحيـاء الـتراث القـومي واستلهـام روح السلف ، ولذلك شاهدنا حركة احياء كبيرة في اللغة وفي الدين .

وإذا كان صدور هذه الحـركـة عن نظرة سلفية ، الامر الذي صبغ اللغـة الفصحى والادب العـربي بفكـرة اصـلاحية سلفية يمكن معه ان يصـح اطـلاق الكـلاسيكيـة على هذه المـرحلة . اذا كان قد وقع في فترة خاصـة . فانـه لايصـح اطـلاقـه على الفـترة الثانية وخاصة بعد الحرب العـالميـة الثانية ، ففي هذه المرحلة الثانية وقع تتطور ملحوظ بالنسبة للغة الفصحى ، تتطـورت في مفـرداتهـا وصيغها وفي اساليب الكتاب والادباء شعراً أو نثراً .

ولاشـك ان هذا التطـور انما تم لظروف جديدة نشأت بعد الحرب العالمية الثانية التي تيقظت فيها الاذهان ، كذلك انتفاضة ماي 1945 ، ثم الاتصال الشديد بالشرق العربي وأخيراً قيام ثورة نوفمبر العظيمة

فكل هذه العوامل وغيرها كان لها أثر كبير في تطور اللغة الفصحى والحياة الادبية والثقافية معا .

ومن هنـا نجـد تلك القفـزة في الادب حيث إخذ الكتاب يبحثون عن موضـوعـات جديـدة تمس حياة المجتمع ، فاستتبع هذا بحثا عن لغة تساير هذه القفزة وهذا التطور فأنفتح بذلك الباب أمام الثقافة العربية في الجـزائـر فتعـددت جوانبهـا واتسعت افاقها ، كما توفر للأدباء من ظروف جدية ساعدت على اطـلاعهم على الاثار الادبية والفنية ، وعلى طرق

جديدة للتعبير والمعالجة وهذا التطور في اللغة صاحبه تطور في البحث عن تجارب جديدة وعن اشكال أدبية جديدة فظهرت تجارب ناجحة في هذه الاشكال ، مثل القصة ، والمقالة الادبية والنقدية ، ولسنا في حاجة الى نقل النصوص والشواهد للتدليل على هذا التطور فيكفي أن نقرأ قصة الكاتب في هذه المرحلة لندرك الفرق بين اللغة الفصحى في هذه المرحلة وبينها في مرحلة سابقة

وليس هذا خاصا بالجزائر وحدها ، بل شاركها في ذلك بقية الاقطار العربية ، لأن لكل جيل نظرته للغة وللادب وطريقته في التعبير عن نوازع نفسه وأهوائها .

فكل جيل يأتي يثور على ماقبله ويطالب بالتطور ، يطالب باحترام تجربته الخاصة ورؤ يته الخاصة . فاذا كان العقاد وطه حسين والمازني قد ثاروا على القدماء فقد ثار الجيل الجديد على من سبقهم وكانت ثمرة هذا الثورة ما نشاهده من جديد في اللغة الفصحى نفسها وجديد في أساليبها واذا شاهدنا الجيل الجديد يرفض بعض الاشياء فانه لم يرفض القواعد اللغوية والنحوية ولم يرفض أدوات اللغة التي تستقيم بدونها .

لاتستقيم بدونها ، لتلعب اللغة دورها في توحيد الأمة العربية ، وحتى تصبح مقوماً اساسياً لهذه الوحدة فتفتيت اللغة هو تفتيت للشعب العربي ولآماله

فالذين نادوا بالتفريق بين الفصحى والعامية وأطلقوا على الاولى مصطلح الكلاسيكية إنما كانوا يصدرون عن نية مبيتة وقد جاراهم في هذا مثقفون عندنا بحسن نية أو بسوء نية ، وبذلك انجروا وراء أفكار هدامة ، دون أن يلاحظوا الهدف والنتيجة المتركبة عن هذه الفكرة أو عن هذه الدعوة ، خاصة واننا نجد الذين نادوا بهذا من المثقفين عندنا أو في بلاد عربية أخرى ، انما هم أولئك الذين يؤمنون بالاقليمية الضيقة التي طغت على قلوبهم وأبصارهم وأفكارهم ، ورفعوا الدعوة الى العامية ، واعتبروا اللغة الفصحى ، لغة كلاسيكية لاتصلح أداة للتعبير والتصوير ولا تصلح لنقل المعارف والعلوم العصرية .

ان التهم التي وجهت الى اللغة الفصحى من أعدائها أو من أبنائها تهم أثبت الواقع بطلانها ، وأثبت تاريخ الفصحى من أعدائها أو من أبنائها ممن يدافع عنها أنها في غنى عن مدح المادحين وفوق قدح القادحين .

وجملة القول ، فان اللغة الفصحى ليست هي اللغة الكلاسيكية بالمفهوم المطلق لهذا المصطلح وليست مقابلا للهجة الدارجة أو العامية واطلاق هذا المصطلح على اللغة العربية في جميع الاعصر فيه اجحاف وتعسف وفيه ظلم للغة العربية وأدبها وفيه ظلم لتاريخها وماضيها المجيد وظلم لحاضرها الجديد .

حقيقة ان هناك من نادى باستخدام اللهجة الدارجة لكتابة الأدب والفن ولكن هذه الدعوة لم تجد من يصغى لها أو يأخذها مأخذ الجد باستثناء طائفة قليلة من الكتاب جاروا الأجانب في هذه الدعوة أو كانت لهم دوافع ونيات غير خالصة لوجه الادب .

ذلك إن اللهجة الدارجة مهما كانت قريبة من نفوس الناس ، لانها هي وسيلتهم للتعبير اليومي وأداتهم العادية في حياتهم المعاشية فانها لايمكن ان تكون لغة أدب وفن ولغة فكر راقية . فلغة الفن ينبغي ان تكون قادرة علي استحداث الجديد وتتبع هذا الجديد والتعبير عنه في جميع الظروف والاحوال ، وهذا ما لم يتوفر للهجة العامية فهي لهجة متعددة ، من ناحية وقاصرة من ناحية ثانية ، وليست هناك لهجة عربية عامية قادرة على ان تستوعب هذه اللهجات لتصبح بعد ذلك هي اللغة الوحيدة التي تقف امام اللغة الفصحى أو تحل محلها من ناحية ثالثة .

وهكذا يتضح ان وضع اللغة الفصحى في كفة والعامية في كفة أخرى واطلاق الكلاسيكية على الاولى والعصرية على الثانية ، ان هذا الاطلاق وهذه التسمية أو هذه المقابلة ، فوق انها ليست نظرة علمية ، فهي فكرة مستعارة ، كان الدافع لها تشويه اللغة الفصحى واتهامها بانها لغة جامدة .

■ ■ ■

فضل العرب على الحضارة الاوربية

- 1 -

- **العرب قالوا بدوران الارض قبل اوربا بخمس قرون « الهيثم »**
  أوربا تنقل مباشرة عن ابن سينا والفارابى
- **العرب أول من اكشتفوا الذرة والصواريخ**
- **الثورة التي أحدثها العرب في التفكير العلمي الغربي**
- **دور المؤرخين والباحثين تجاه حضارتنا وتاريخنا**

لم يعد بالامكان في هذا العصر استمرار تزييف الحقيقة وانكارها وخاصة حين يكون ذلك متعلقاً بالتاريخ . . .

وبين يدي اليوم دراسة موضوعية نزيهة تصحح تاريخاً زيف ووقائع ثابتة نالها التحريف . دراسة تبين بالادلة الدامغة وعن طريق المصادر والوثائق التي لاتقبل الشك ، دور الحضارة العربية الاسلامية والتفكير العربي من الحضارة الغربية منذ نزول الاسلام وطوال مايزيد على سبعة قرون . . . وكيف أن أوربا أقامت مدنيتها وعلومها وثقافتها على أكتاف العرب وبفضلهم . . وأنه في الوقت الذي كان النوريملأ الدنيا هنا في جميع أركان أمتنا العربية منبثقاً من ربوع مكة وهضاب الحجاز ومنتشراً حوله فاتحاً منتصراً حتى بلغ حدود الصين . . كانت أوربا تسبح في الظلام . . ظلام الجهل والتزمت الكهنوتي والغيبيات . . .

ثم يدور الزمان وينكب العرب بالحكم العثماني والاستعمار الغربي ويقع الصراع المرير الذي مازال قائماً حتى اليوم . . وينتج عن هذا كله انكار حضارتنا وتزييف تاريخنا وتشويه ثقافتنا وقيمنا الأصيلة من بعض المستشرقين والدارسين في الغرب الذين تحاملوا على تراثنا تعصباً أو خدمةً للاستعمار . .

ولكن هناك فئة أخرى من المستشرقين الغربين الاحرار المؤمنين بنزاهة البحث العلمي وضرورة تجرده لحن الغرض والهوى . . هذه الفئة حاولت الكشف عن أضول حضارتنا العريقة وتراثنا الأصيل بدراساتهم وأبحاثهم . . واذا كان هؤلاء قد سبقونا الى ذلك فان هذا أدعى الى أن نشرع في القيام بدورنا تجاه حضارتنا وأمجادنا كواجب قومي يجب أن نضطلع به جميعاً . . حكومات وأفرادا . . هيئات وجامعات . . مؤرخين ودراسين متخذين من بحوث هؤلاء ودراساتهم سندا لنا وشاهد حق . .

وتأتي في مقدمة هؤلاء الباحثين الذين يهتمون بالحقيقة للحقيقة نفسها ويعملون بتجرد وموضوعية خدمة للفكر الانساني . . تأتي في المقدمة الدكتورة سيجريد هونكة صاحبة كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » ، وهي ألمانية مستشرقة كرست حياتها لدراسة تاريخ العرب في الماضي والحاضر والدفاع عن تراثهم وحضارتهم . . وقد كان موضوع رسالتها للدكتوراه من جامعة برلين عن « الأدب العربي في الآداب الأوربية » . . أما كتابها هذا فقد جاء نتيجة مجهود عدة سنوات من البحث الموضوعي الجاد ، وحين صدر أثار دوياً هائلاً في المانيا وأوربا كلها وتعرضت صاحبته للهجوم العنيف من جانب المتعصبين الاوربيين خاصة الصهاينة وعملاءهم الذين اتهموها بالتحيز للعرب ، ولكن الكتاب رغم ذلك استطاع أن ينتشر وأن يترجم الى عدة لغات منها العربية على يد الاستاذين فاروق بيضون وكمال دسوقي في بيروت ، والدكتور فؤاد حسنين علي في القاهرة الذي ترجمه تحت عنوان « فضل العرب على أوربا » . .

كلمة حق

والدكتورة هونكة تقدم للطبعة الألمانية بقولها : « ان الدين الذي في عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب دين كبير جدا » . .

وتقدم للطبعة العربية بهذه العبارات :

« . . أردت أن أكرم بهذا الكتاب العبقرية العربية وأن أتيح لمواطني فرصة العودة الى تكريمها . . كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم الذي حرمهم من سماعه طويلا تعصب د.: , أء جهل أحمق » .

ونمضي مع صفحات الكتاب التي تتجاوز 400 صفحة ليعود بنا الى القرون الوسطى حين كانت خريطة أوربا تنقسم الى قسمين : الاغريق من جهة وروما من جهة ثانية . . في هذا الوقت بدأ العرب يلعبون دورهم لا بالنسبة لاوربا بل للعالم كله . . وكان السبيل أولا هو التجارة ثم تلتها الاكتشافات العلمية والجهود الثقافية والفنون والآداب وغيرها من مظاهر الحضارة الانسانية . . عن طريق هذا كله شق النور العربي طريقه منطلقاً من جنوب الجزيرة العربية خلف دعوة محمد بن عبد الله ليصل الى أطراف البحر الأبيض حتى شواطىء الأطلسي ويمتد شرقا وجنوبا وغربا ليكتسح أمامه هذا العالم القديم بكل ما حوى من ثقافة وحضارة فيشطر وحدته التي دامت أكثر من ألف سنة الى شطرين . . شرق وغرب . . « . . في الشرق قامت امبراطورية العرب الجديدة لتفرض وجودها على الغرب مجبرة اياه على أن يعزل نفسه وينغلق على ذاته » . . وكانت النتيجة أن أجدبت سواحل أوربا ومدنها وموانيها وعاث فيها القراصنة فسادا . . واقفرت الاسواق فلم يعد الاوربي يستطيع الحصول على مطالبه الضرورية الا بصعوبة بالغة .

وهنا تتسائل المؤلفة : « ولكن هل يظل الغرب هكذا عازلا نفسه ؟ » وتجيب بأنه كان لابد من ثغرات ينفذ منها الضوء العربي وجاءت أولى هذه الثغرات عن طريق قوافل الحجاج المسيحيين الذين فتحت لهم سماحة الاسلام الباب على مصراعيه الى أماكنهم المقدسة في فلسطين وغيرها . . واستطاع هؤلاء أن ينقلوا الكثير مما رأوا وسمعوا . . .

الورق والأرقام

ومن الاشياء التي نقلوها الى أوربا والتي تعطينا الدليل على السبق

العربي هي صناعة الورق . . لقد كان العرب هم أول من صنع الورق واستخدمه في الكتابة . واستطاعت الباحثة أن تكتشف أن اختراع الورق أدى بدوره الى اختراع الطباعة في عهدها الأول وكان ذلك على يد العرب أيضا لا جوتنبرج كما هو شائع في العالم كله . . . كذلك نقل العرب علم الارقام بشكله المبسط الجديث الى أوربا بعد أن عجزت الارقام الرومانية واللاتينية القديمة عن أداء مهمتها نظراً لتعقيدها وصعوبتها . . ولولا ذلك لما وجدنا بين أيدينا اليوم هذا الرصيد الهائل من علوم الرياضة والفلك والطبيعيات وغيرها بل ولما وجند العديد من مكتشفات العلم الحديث.

ولقد تألق بلاط المأمون الخليفة العباسي باسم لامع في مجا ل العلوم الرياضية هو العالم العربي أبوموسى الخوارزمي ، ولعل المدهش حقا أن نعرف أن العلم الحسابي المعروف « باللوغاريتمات » والذي يدرس الآن في جميع أنحاء العالم انما يرجع الفضل في تأسيسه الى الخوارزمي بل أن لفظة « لوغاريثم » نفسها باللاتينية مأخوذة من اسمه أصلا ، كذلك اشتهر بكتابه « الجبر والمقابلة » الذي ترجم الى اللاتينية ومنه أخذت أوربا كلمة « الجبر » التي لم تكن معروفة قبله . .
والعرب هم الذين أوجدوا الحساب العشري والكسور العشرية وأسسوا علم حساب المثلثات . . والذين يتهمون العرب بأنهم كانوا في هذا المجال مجرد نقلة عن اليونان يعرفون في قرارة أنفسهم انهم يزيفون الحقيقة التي تقول أن أسلوب الرياضيات الذي عرفته أوربا عن طريق العرب كان في الواقع ثورة جديدة في هذا الميدان . . .

وفي الفلك

وينتقل بنا الكتاب الى ميدان آخر نبغ فيه العرب نبوغا أدهش العالم ـ هوعلم االفلك ـ ساعدهم على ذلك طبيعة بلادنا العربية

بصحرائها ونجومها وسماءها الصافية ، ولاتزال معظم أسماء النجوم والكواكب وغالبية الاصطلاحات الفلكية المستعملة حتى اليوم في أوربا عربية الاصل . .

ومن الفلكيين العرب المعروفين موسى بن شاكر وأولاده الثلاثة الذين شجعهم الخليفة العباسي وأسس لهم مرصدا هائلا في بغداد وأمدهم بالأموال اللازمة لأبحاثهم . . ولقد ألفوا كتابا عن المساحات ترجم في العصور الوسطى الى اللاتينية واشتهر في أوربا كلها باسم « كتاب الاخوة الثلاثة في الهندسة » . . كما لمعت أسماء أخرى مثل حنين بن اسحق وابنه وحبيش ابن الحسن وثابت بن قرة الذي وضع وحده في الرياضة والطب والفلك 150 كتابا بالعربية وعشرة كتب بالسريانية وكان أشهر علماء زمانه . .

هذه مجرد أمثلة نلتقطها من بين 534 عالما فلكيا عربيا حفظ التاريخ أسماءهم وجهودهم . . وتنبهر الكاتبة أمام هذا العدد الضخم فتهتف قائلة : « . . عدد لعمري لم يوجد الا عند القليل من الأُمم الراقية . . وتقرر أن أبناء موسى وغيرهم قد ساهموا مساهمة كبرى في بعث النهضة العلمية الاوربية . . »

من اكتشف الذرة ؟؟

ولكننا لانترك هذا الحشد من العبقريات دون أن نتوقف عند « ابن الهيثم » وهو من أكبر من أثروا في الغرب من العلماء العرب بنظرياته الجديدة في الضوء والطبيعة والفلك ، وعنه أخذ فيها بعد روجر بيكون وليوناردو دافنشي وجاليلو . .

كذلك البيروني « الذي سبق علماء أوربا بخمس قرون حين اكتشف سنة 1000 م أن الشمس ليست هي سبب تفاوت الليل والنهار

بل إن الارض ذاتها هي التي تدور حول نفسها ومع الكواكب الأخرى حول الشمس » .

وفي الاندلس والمغرب العربي نجد ابن باجة وابن طفيل والرازي وغيرهم ممن نقلت عنهم أوربا مباشرة نظرا للقرب الجغرافي ولسهولة الاتصال . .

وشيء آخر يدعو للفخر وهو أن نعلم أن الأصل في اكتشاف الذرة لايرجع الى أوربا بل الى العرب وذلك على أساس نظريات ابن سينا والفارابي « الاحجام اللامتناهية الصغر » .

وحديث الذرة يقودنا الى الكشف عن حقيقة أخرى لاتقل روعة ، وهي « الصواريخ » . . ان الغرب مدين أيضا للعرب بهذا الاختراع وكان ذلك في حوالي القرن الثاني عشر حين وضع العلماء العرب نظرية تركيب البارود المندفع لمادة دافعة للصواريخ . . ولم يقف الامر بهم عند الحد النظري بل لقد استخدم المغول نظريتهم بالفعل في معركة « بين كنج » مع الصين وانتصروا بها عام 1270 م وهي نفس الفكرة التي استخدمها فيما بعد القائد المصري فخر الدين ضد جيوش الفرنج وملكهم لويس في الحرب الصليبية . . الامر الذي أثار الرعب في صفوف الصليبيين حتى أن المؤرخين يذكرون أن ملك فرنسا كان يصرخ قائلا : « يايسوع المسيح . . . نجني واحمني ورجالي من هذه الكارثة » .

العرب والطب

ونصل في الحديث مع الكاتبة الى الطب لنجد أن العرب في فجر أيامهم نبغوا في كافة فنون الطب التي ازدهرت على أيديهم ازدهارا ملحوظا ، في الوقت الذي كان فيه الاوربيون غارقين في أوهام زرعتها في نفوسهم الكنيسة « بأن العلاج على أيدي البشر حرام وأن المريض يترك حتى تأتيه المعجزة الشفائية دون الاستعانة بالبشر » . . وظل الحال كذلك حتى وقعت الحرب الصلبية وعاد الاوربيون من حربهم في الشرق

لينشؤوا المستشفيات على غرار مارأوا لدى العرب من مستشفيات وصف نظامها المؤرخون بأنه يضارع النظام الحالي الذي نراه في القرن العشرين . . « وقد كان في مدينة قرطبة وحدها في القرن العاشر 50 منستشفى وبلغ عدد الأطباء العاملين في مدينة بغداد فقط دون اطباء الحكومة 860 طبيبا في الوقت الذي لم يكن في كل مقاطعات الراين طبيب واحد » .

وفي مجال الطب نبغت أسماء عربية كثيرة مثل سفيان بن ثابت وابن التلميذ والرازي أيضا الذي ألف أكثر من 200 كتاب أهمها الموسوعة الطبية الضخمة بعنوان « الحاوي » والتي اعتمد عليها الطب الغربي فيما بعد اعتمادا كبيرا حتى لقب بأعظم طبيب في القرون الوسطى . . وقبل 600 عام كانت مكتبة الطب في باريس لاتضم سوى كتاب واحد هو كتاب الرازي هذا الذي « قضى مترجمه الى اللاتينية نصف عمره في ترجمته » . .

غير الرازي هناك ابن النفيس وابن الخطيب وابن مسكويه . . أما ابن سينا - الشيخ الطبيب - فقد استطاع أن يحجب شهرة جالينوس وأبو قراط قرونا طويلة من الزمان ، وكان لكتابه « القانون » من الأثر في الشرق والغرب على السواء مالم يكن لأي كتاب في الطب على الاطلاق ولاتزال صورته حتى اليوم تطل في القاعة الكبرى في كلية الطب الفرنسية اعترافا بفضله .

روح الحضارة

وتلتفت الدكتورة هونكة الى ناحية هامة هي العاطفة الانسانية التي كانت رائد العرب في معالجتهم للمرضى وخاصة ذوي الامراض المستعصية في الوقت الذي كان فيه الاوربيون يقصونهم عن المجتمع ويرمون بهم في أعماق السجون حتى يدركهم الموت . . ولاشك أن الانسانية هي لب الحضارة وروحها . .

كذلك سبق العرب بمعالجتهم للامراض العقلية والعصبية

والنفسية . وقد وضع ابن الهيثم كتابا بعنوان « تأثير الموسيقى في الانسان والحيــوان » . . ونحن نعـرف أن المـوسيقى اليـوم أحـد دعـائم العـلاج العصبي والنفسي في العالم كله . .

ومـع الطب نبـغ العرب أيضا في الجراحة . . وبعد 700 سنة نقل عن الجـراحـين العرب أمثال أبي القاسم الزهراوي الجراحون الاوربيون ومنهم الانجليزي بريسفال والفرنسي امبر واز باري . .

ويقـول الكتـاب بان أهم ما امتـاز به العـرب في هذه الميـادين هي اتجـاههم العمـلي واحـلالهم التجـربـة محل البحث النظـري « ذلـك لأن ماقدمه الاغريق مبعثرا في كتبهم وابحاثهم خضع لدى العرب الى النظرة العلمية الشاملة والمنهج التجريبي » . .

. وهكذا انتقلت ابحاث العلماء العرب ونظرياتهم وأفكارهم الى أوربـا عبر الـلاتينيـة « فأشبعتهـا كما يشبـع الماء الرمال العطشى . . وفي مراكـز العلم الاوربيـة لم يكن هنـاك عالم واحـد لم ينهل من المورد العربي المتدفق بالعلم والتجربة . . » .

الأبواب الخلفية

وتـعلق الكــاتبــة بأنــه بعــد القــرن 16 دب الخجــل فجأة في العلوم الغـربيـة ـ وخاصة الطب ـ بسبب تقليدها واعتمادها الكلي على التفكير العـربي فقـامت موجة أملاها التعصب والحقد من إحراق الكتب العربية والطعن فيهـا . . ولكن ماذا كان عليـه الـوضع الحقيقي ؟؟ هل استقل الغـربيـون بتفكـيرهم . . الجـواب بالنفي . . لقـد عمدوا الى سياسية « الابواب الخلفية » الى السرقة من الكنوز العربية ثم نسبتها الى أنفسهم بلا حياء .

وتمـضـي صفحــات كتــاب « شمس العــرب تسطــع على الغــرب » لتـوضح ـ بالمثل تلو المثل والدليل وراء الدليل ـ كيف كان العرب الاولين

أصحـاب حضـارة عريقـة مشـرفـة . . كيف كان أجدادنا العرب بمثابة المعلم لاوربـا ، وتصـل الكـاتبـة الى جوهر الحقيقة حين تقول بأن أفكار العـرب ومنـاهجهم في التفكـير وطرائقهم في البحث كانت هي الاساس وهي التي خدمت الحضارة الاوربية أولا قبل اكتشافاتهم العلمية وأبحاثهم في شتى المجالات . . وهذا ما عبرت عنه الكاتبة نصا بقولها :

لقد كان ذلك بمثابة ثورة في التفكير الغربي »

■ ■ ■

فضل العرب على الحضارة الاوربية

- 2 -

ـ . . . بالاسلام أصبح الشعب العربي معلم أوربا .
ـ . . . بالاسلام حقق العرب ماعجز عنه البيزنطيون والفرس
اللغة العربية . . كيف أصبحت عالمية في « 100 سنة »

تحدثت فيما سبق عن دور المؤرخين والباحثين العرب تجاه حضارتنا وتاريخنا وضرورة تنقيتها من شوائب التعصب والتشويه الذي لحقها على أيدي الباحثين والمؤرخين الاوربيين عن قصد أو عن غير قصد . . وقلت أننا نستطيع أن نتخذ من أبحاث نفر من علماء ودارسي الغرب الأحرار ، نقطة انطلاق وشاهد حق ، وقدمت كمثل على هذه الابحاث الكتاب القيم للمستشرقة الألمانية الدكتورة : سيجريد هونكة شمس العرب تسطع على الغرب » ، الذي يشرح تأثير العرب على الحضارة الاوربية وكيف أن العرب في العصور الوسطى كانوا بمثابة المعلم لأوربا وعنهم نقل الاوربيون ثقافتهم وعلومهم وفنونم ومناهجهم في التفكير . . واليوم نواصل الحديث مع مؤلفة كتاب شمس العرب تسطع على الغرب .

وقد أطلقت الباحثة على الباب الخامس من كتابها عنوان « سلاح المعرفة » هذا السلاح الذي استعارته أوربا من العرب الأوائل وشيدت به صرح ثقافتها وآدابها وفنونها . . . وتقول أنه منذ عام 1000 م نشر ابن النديم ببغداد فهرسا من عشرة مجلدات ضخمة يحوي فقط أسماء الكتب التي صدرت بالعربية حتى ذلك الحين في شتى نواحي المعارف الانسانية . . في ذلك الحين كانت قرطبة تموج بطلاب العلم من كافة أنحاء الشرق والغرب وبمدارسها العليا ومعاهدها ومكتبتها الهائلة التي كانت تتنافس كما وكيفا مع مكتبة الخليفة في القاهرة . . وهذه الاخيرة كانت تضم نحو مليونين ومائتي مجلد شهد لها عالم من الغرب نفسه هو

جربـرت فون أور يـاك الـذي أصبـح بابا روماسنة 999 م فقال عنها :
«ليس ثمة أحد في روما له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة .. وأنّا لنا أن نعلم الناس ونحن في حاجة الى من يعلمنا » . .

أمـا مكتبـة النجف ـ وهي واحـدة من مكتبـات عديـدة ازدحمت بها مدن العـراق فكـانت تضم حوالي 40 ألف مجلدا ، بينـما لم تحو أديرة الغـرب كلها سـوى 12 كتابا ربطت بالسلاسل خشية ضياعها .

حتى بائع الفحم

وقـد لا يبـدوا هذا عجيبـا يستحق الاحتفـال به ، فمن الممكن أن توجد في كل عصر حفنة من العلماء ورجال الفكر تهتم بالكتب وطبعها الى هذه الدرجة ؟؟ .

ولكن الكاتبة ترد بروح الباحثة النزيهة بقولها : أن عشق الكتب لم يكن وقفـا على حفنة من العلماء فقـط بل كان هوايـة العرب جميعا على اختـلاف طبقـاتهم . . . فكـل متعلم من أكـبر كبراء الـدولـة الى بائـع الفحم ، ومن قاضي المدينة الى مؤذن المسجد « هوزبون دائم لدى بائع الكتب » . وهـذه هي الحقيقـة . . كان اقبـال العرب على اقتناء الكتب شيئا فريدا . . . وكان الثراء العربي في حقبة تمتد من القرن التاسع حتى الثالث عشر يقاس بعدد الكتب والمخطوطات والتراجم وبقيمتها العلمية والثقـافيـة مثلما يقـاس غنى النـاس اليـوم بالسيارات والثلاجات وأجهزة التلفزيون . .

وبينما كان أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن القراءة والكتابة . .
وبينـما كانت نسبـة 95% من سكـان أوربا هذه الحقبة نفسها أميين كانت عبارة « حبر الطالب أفضل من دم الشهيد » منقوشة في قلب كل عربي . .
وكانت آلاف المدارس والمساجد تفتح أبوابها لتلقي ملايين التلاميذ العرب

يبدأون بتعلم القرآن وتجويده ثم يتدرجون منه الى النحو والصرف وقواعد لغتهم ثم يفتحون النوافذ على مختلف مجالات المعرفة البشرية . .

فعلوا ذلك لا عن قهر أو إجبار وانما عن ايمان وعقيدة ولكي يصبحوا مسلمين بحق يلبون دعوة دينهم ورسولهم . « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » . . « اطلبوا العلم ولو في الصين » .

كيف حدث هذا * ؟؟

. . كان العالم العربي في هذا الوقت يسرع نحو قمة عصره الذهبي . . وتعترف بذلك الدكتورة هونكة بقولها : « ان هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء والتي بدأت من اللاشيء لهي ظاهرة جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الانساني . . . »

ماهي المقومات التي امتلكها هذا الشعب ليفعل هذا ويصبح معلم أوربا ويخرجها من الظلام الى النور . . .

وبعد تحليل مسهب تنتهي الكاتبة الى عامل واحد هو السبب في كل هذا . . وهو الاسلام . . إنّ الروح الجديدة والطاقة الهائلة التي بثتها العقيدة الاسلامية في نفوس العرب كانت كفيلة بخلق هذه المعجزة . . وهي التي حولت في سنوات قلائل مجموعة من القبائل المتنازعة االمفككة الى شعب عظيم متحد يشغل مساحة واسعة من الارض

تتاخم شواطيء الاطلس بعد سلسلة من الفتوحات والانتصارات . . هذه هي المساحة الواسعة التي فرشتها الحضارة العربية لنفسها مكنتها من ان تثبت أقدامها وان تبعث باشعتها هنا وهناك . . .
ومما ساعد على ذلك كله هذا التسامح الفريد من نوعه والذي هو جزء من روح الاسلام . .

لا اكراه في الدين

وتلاحظ الباحثة ان هذه المعاملة الطيبة التي كان يلقاها رعايا البلدان المفتوحة من قبل العرب وهذا التسامح مع من اختلفوا معهم في الدين « لا اكراه في الدين » . . شيء لم ير له التاريخ مثيلاً . ولقد كان

هو المجرى الذي استطاعت به حضارة العرب وثقافتهم وعلومهم ان تشق طريقها في سهولة ويسر الى اوربا والى العالم كله . . .

بالتسامح . . وبالحرية . . انتشر الاسلام واقبلت الشعوب على اعتناقه عن رضى واقتناع . . وانتشرت بالتالي لغة الاسلام وكان طبيعيا ان تصبح هي لغة الادارة والسياسة والقانون ، بل لغة التجارة والمعاملات وجمهور الناس . .

. . ((وسقط الكثير من جيران العرب صرعى سحر اللغة العربية وجمالها)) . . على حد تعبير الكتاب . . .

ولهؤلاء الذين يتشدقون اليوم بجمود العربية وتخلفها نسوق هذا النص أيضا للكاتبه التي تنتسب الى الغرب والى اللغات الغربية :

((لقد استطاعت اللغة العربية ان تقهر اللغتين القبطية والآرامية وغيرهما وتحولت في خلال مائة عام من لغة قبيلة الى لغة عالمية . . . ليست اللغة ثوبا ترتديه اليوم لتخلعه غدا ووجدت تجاوبا من الجماعات فطبعتهم بطابعها وكونت تفكيرهم ومداركهم وشكلت قيمهم وثقافتهم وحياتهم المادية والعقلية . . هكذا كان دور اللغة العربية في الماضي . . وهي قادرة على ان تلعب هذا الدور أيضا في الحضارة الحديثة 99 وقادرة على ان تكون مثلما كانت لغة علم وفن وفكر وحضارة . . .

فهي في الماضي لم تكتف فقط بأن تقدم لاوربا علوما وفنونا وآدابا انما قدمت لها أيضا تراث ماسبق العرب من حضارات عن طريق الترجمة . . قدمت لها تراث الاغريق من فلسفة وعلوم . . وما بقي الى اليوم من هذا التراث مدين للعرب وحدهم والى اللغة العربية . .

ليسوا مجرد وسطا

وقد أخطأ المؤرخون الغربيون حين جكموا على الحضارة العربية بمقياس الحضارة اليونانية القديمة قائلين بأنها تقليد لها . . ذلك أن العرب كغيرهم استفادوا بلا شك من تراث السابقين ودرسوه ونقبوا فيه وفتحوا عيونهم وعقولهم على كافة المعارف البشرية ولكنهم خرجوا في

النهاية بمنهجهم الخاص وفكرهم المميز . . واذا كان الفكر اليوناني قد تميز بالتأمل العقلي وتطلع الى الافكار النظرية والقوانين العامة دون اعتبار للتجربة أو للخبرة أو الملاحظة المباشرة فان الفكر العربي قد اتخذ الطريق المغاير وهو الطريق الذي لازالت تنتهجه العلوم حتى اليوم . .

ونمضي مع كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » لنصل الى أروع فصوله وهو ما خصصته الباحثة للحديث عن عرب الاندلس وبعد حديث طويل عن المجتمع الاسلامي الاول . . وكيف كان منظما تحترم فيه المرأة وتوضع في مكانها اللائق بها وتحترم فيه الاسرة وتقاليدها . . تمضي الكاتبة لتستعرض مجهودات العرب في اسبانيا وهذا الازدهار والتألق الذي عم الاندلس وكان أجمل وأعظم من أن يقارن بغيره . . وكيف أن الحضارة الاندلسية كانت عربية صرفة لافارسية ولا اغريقية .

باريس خلف قرطبة

ان اوربا اليوم تدين بالكثير جدا الى الفن العربي في الاندلس ولاسيما الغناء والموسيقى . . . وكانت قرطبة كما سبق أن قلنا كعبة العلم والأدب والفن العربي الأصيل . . وكانت وحدها تحوي 600 مسجد و 17 مدرسة عليا و 20 مكتبة عربية . . هذا ما عدا الحمامات والقصور والشوارع المرصوفة النظيفة والحدائق الغناء والاضواء . . ومضى قرنان من الزمان قبل ان تشرع باريس في تقليد قرطبة فترصف شوارعها وتنظفها . ثم مضى قرن آخر لتشرع باقي العواصم الاوربية في تقليد باريس . . .

دور الشعر العربي

تحدثنا عن الحركة الفكرية والثقافية في الاندلس التي لمعت فيها اسماء ابن رشد وابن زهر وابن طفيل وابن باجة وابن الخطيب وابن خلدون وابن عربي وغيرهم ، والتي جذبت الآلاف من اليهود والمسيحيين وطلاب العلم من كافة أنحاء الدنيا . . اذا تحدثنا عن ذلك فلا بد أن

نتوقف عند الشعر العربي . . لقد كان حظ الاندلس منه كبيرا وكان الخليفة والأمراء أنفسهم شعراء مبرزين ومنهم من أولع به حتى أن المنصور كان يصطحب معه في حروبه ٤٠ شاعرا من شعراء عصره . .

لقد عاش الشعر العربي عصرا من أزهى عصوره في رحاب الاندلس الى درجة أنه أصبح لغة التخاطب بين كافة الناس فأجاده الخاصة والعامة . . وهنا تروي الكاتبة باسلوب منفعل أخاذ حكاية رجل بسيط من بني الملاح خرج مع طفله الصغير ذات مساء للنزهة بأحد الوديان . . وسمعا نقيق الضفادع فجعل الرجل يقول لابنه : « أجز » وهي الطريقة التي اشتهر بها العرب - أي يرتجل أحدهم شطرا ويكمل له الآخر الشطر الثاني - فقال الأب : تنق ضفادع الوادي .

أجاب الابن : بصوت غير معتاد .

الأب:كأن نقيق مقولها .

الابن : بنو الملاح في الوادي .

فلما أحسست الضفادع بها صمتت

فقال الأب : وتصمت مثل صمتهم .

الابن : اذا اجتمعوا على زاد .

وتعلق الكاتبة :

« وبين هذا الشعب الذي آلف أطفاله نظم الشعر يصعب علينا اليوم أن نتحدث عن شعرائهم فالكل شاعر يقرض الشعر ويرتجله » . .

وقد سيطر الطابع العربي في الشعر على العالم وطغى على الطابع الاغريقي واللاتيني والجرماني . . ورغم أن اللغات الجرمانية وبخاصة الألمانية يصعب استخدامها في القافية الا أنها اتخذت الطابع العربي طابعا لها . . جذبتها اليه الحاجة الى ايقاع موسيقي يتفق مع الشعر الغنائي ولو لم يفعل الغرب هذا لما وصلت القصائد الغنائية عند جوته وغيره من الشعراء البارزين الى ما وصلت اليه من شهرة عالمية . .

أما الشعر الاندلسي المختلف القوافي من رباعيات وخماسيات فقد غزا أوربا وأخذ الشعراء الغنائيون يقلدونه أمثال شعراء إيطاليا دانتي وداتوري والاسيزي ولورتروري فيش وتيرارك وغيرهم . .

ونختتم هذا العـرض السـريـع للبحث القيم النزيه الذي أنصف العرب وبين لمؤ رخي الغرب وباحثيه أن العرب اصحاب حضارة عريقة فرضت نفسها على التاريخ . .

نختم هذه الجـولـة عبر ماضينـا وأمجـادنا بأبيات من شعر « جوته » إستشهدت بها صاحبة البحث أبيات تقول :

« وهكـذا وجب أن يظهـر الحق ويعلو . . كما نجـح في هذا محمـد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد »

■ ■ ■

تولوستوي والاسلام

في مرحلة الـوعي بالـذات تبحث الامـة عن اصالتها وتسعى الى اكتشاف ذاتها ووجودها ، وتفتش عن جوهرها وما قدمته وتقدمه للانسانية من عطاء ، وما اسهمت به من جهد حضاري افاد البشرية واثرى قيمها وتراثها وفكرها وثقافتها .

واعتقد ان الامة العربية في المرحلة الراهنة تحاول ان تعي ذاتها من خلال تاريخهـا ومن خلال ما تركتـه من اثـر في الآخـــرين. ثم انهـا تعمل على صيـــاغـــة هذا الـوعي لتحقيق املهـافي المستقبـل وتحقيق وحدتها ومصيرها الواحد الذي تصبو اليه باستمرار .

في حين انها في فترة مضت كانت تعيش متأثرة ، تقارن ما لديها وما لدى الغير حتى اوشكت ان تنسى انها في يوم من الايام كانت الرائدة في ميـادين كثـيرة . ولعـل هذا الاستـلاب الذي عاشته امتنا وما زال يعيشه البعض يرجـع الى التخلف الـذي امتد قرونا طويلة ، وزاد من استمراره عوامـل كثـيرة في مقـدمتهـا الاستعـمار الغـاشم الـذي ابتليت به الامـة العربية ، كذلك تلك الفئة من المفكرين والكتاب الذين لم يروا في تاريخ امتهم ما يبهـرهـم وانـما الـذي غشى عيـونهم مارأوه في الغـرب من ثقافة وتقـدم حضـاري ، ومـا اطلعـوا عليـه من نماذج متفـردة في الادب والفن والثقافة بل العلوم والمخترعات الحديثة .

ومن هنـا راينـا هذا الـرهـط من المثقفـين يعيش كالمسحـور في ظل الحضـارة الغـربيـة يتفيأ ظلالهـا مسـتريحـا من عنـاء البحث في الجذور ، مستسلما الى الخـدر الـذى ملك عليه عقله وقلبه وعواطفه دون أن يكلف نفسـه جهـدا في مراجعـة احكـامـه وآرائـه حول الثقافة التي ينتسب اليها والحضارة التي ينتمي الى فكرها وماضيها وتاريخها .

وربما كان هذا من بين الدوافع التي جعلت مجلة « المعرفة » تصدر عددا خاصا يتناول اثر الفكر والحضارة العربية في الفكر الانساني ، وهذه التفـاتـة طيبـة من المجلة تسهم بها في التعـريف بدور الثقـافـة العربية في

تعميق وعي الانسان ، وفي بيان مدى تأثر البشرية بما في هذه الحضارة من قيم وخير ونبل ومثل سامية .

ولا يعني هذا دعـوة الى التغني بالماضي وامجاده والانكفاء على الذات ، او الاكتفاء بما تحقق في هذا الماضي ، ولكنه يعني ان الاوان قد ان لنبحث عن التوازن في انفسنا وفي واقعنا بدل الهروب الى الامام او النكوص الى الوراء . ان الاوان لكي نحطم مركب النقص في نفوسنا وان ننظر الى العالم من حولنا نظرة اخرى غير التي كنا ننظر بها اليه ، ننقد الماضي ولا نلعنه ، نعمل على تغيير الحاضر بما يحقق أحلام وآمال المستقبل . والواقع ان العالم قد تنبه الى ما في فكرنا من ثراء منذ زمن طويل وبدأ يعترف بدورنا الحضاري بعد ان خف التعصب ضدنا نسبيا وانحسرت موجة الاستعمار عن الوطن العربي وان كانت بقاياه مازالت تلفظ انفاسها الاخيرة .

ومن بين الذين اعترفوا بما في تراثنا من قيم انسانية اديب روسيا الشهير « تولستوي » ، فهو واحد من بين العشرات ممن نوهوا بالحضارة العربية الاسلامية وتأثروا بها وبما حملته من هدى ونور وخير ، واصبحت الكتب تطبع بوفرة حول هذه الحضارة وتنوه ببناتها وتحاول ان تكفر عن عصور الجحود والنكران التي عملت على طمس معالم هذه الحضارة وفكرها وعطائها ، وغذى ذلك كله بعض المستشرقين وبعض رجال الكنيسة في الماضي الطويل .

وقد فوجئت بهذا الاديب الروسي العظيم ينوه بما في الديانة الاسلامية من فكر ، ويظهر تعاطفا واضحا مع ما اطلع عليه من احاديث الرسول محمد (ص) فألف كتابه « حِكم النبي محمد »[1] الذي نقله إلى العربية « سليم قبعين » . والكتاب اصلا هو ترجمة لاحاديث نبوية كما يظهر من عنوانه ترجمه « تولوستوي » من الانجليزية الى الروسية ، عن كتاب الفه « عبد الله السهروردي »(2) وترجم فيه احاديث نبوية كثيرة فاختار منها « تولوستوي » بعض ما يناسب اتجاهه وفكره .

ويقول مترجم الكتاب ان ما دفع الاديب الروسي الى ترجمة هذه الاحاديث هو : « تحامل جمعيات المبشرين في قازان (من اعمال روسيا)

على الدين الاسلامي ونسبتها الى صاحب الشريعة الاسلامية امورا تنافي الحقيقة وتصور للروسيين تلك الديانة واعمال صاحب تلك الشريعة بصورة غير صورتها الحقيقية ! فهزته الغيرة على الحق الى وضع رسالة صغيرة اختار فيها عدة احاديث من احاديث النبي محمد عليه السلام ذكرها بعد مقدمة جليلة الشأن واضحة البرهان ، وقال : هذه تعاليم صاحب الشريعة الاسلامية ، وهي عبارة عن حكم عالية ومواعظ سامية تقود الانسانية الى سواء السبيل » . (3)

على ان المترجم لم يكتف بهذه الاحاديث التي ترجمها تولستوي بل ترجم شواهد كثيرة من اقوال بعض المفكرين ممن يعترف بعبقرية النبي محمد (ص) او من يتحامل عليه وعلى الاسلام . وقد اهتم باحوال المسلمين في روسيا في بداية هذا القرن من حيث واقعهم وثقافتهم واعدادهم واعمالهم ومحافظتهم على الاسلام واللغة العربية ، حتى ان حفظ القرآن عم الكبار والصغار ، بل كانت الفتيات يتعلمن العربية الى جانب الروسية ويتفوقن في حفظ القرآن وتلاوته امام الجمهور ، كما عرض الى نبوغ كثير من المسلمين مثل « احمد بك » الذي كان يرد على المطاعن التي يرددها الاوروبيون ضد الاسلام والمسلمين ، اويفند الترهات التي الصقوها بالرسول وشارك فيها الكتاب والرسامون امثال : شكسبير ، وفولتير ، الذي التمس الغفران من البابا بواسطة تقديمه له رسالة الطعن المشهورة التي عنوانها محمد « وقد نسب بها الى النبي محمد (ص) أمورا منكرة لم تخطر بباله ، ومنافية على خط مستقيم لروح تعاليمه ومبادئه »(4)

ثم يعرض المترجم الى التغيير الذي طرأ على هذه العقلية المتعصبة بعد انتشار العلم والمنطق ، وبعد ان ساد التفكير العلمي المجرد ، فاعترف كثير من الغربيين بمكانة الرسول (ص) وتعاليمه فاصبح : « ذلك المصلح العظيم الذي هز العالم بتعاليمه ومبادئه وافكاره السامية . »(5)

ويسوق شواهد من اعترافات كتاب وعلماء مثل المستشرق الانجليزي المعروف « ماكس مولر » اومثل غيرهم من روسيا . كما انه

عرب مقالات اخرى غير ماذكرنا ، ظهرت في الصحافة الروسية في تلك الفترة ، تشيد بالرسالة المحمدية وفيها تاريخ لها ولصاحبها مع شواهد من القرآن .

ويتابع الكاتب طريقه فيعرض من خلال من ترجم لهم الى قضايا كثيرة تتصل بالاسلام والمسلمين في روسيا او في غيرها ، ويضرب امثلة من اقوال المستشرقين ورجال الدين وغيرهم حتى يصل الى الاحاديث التي ترجمها « تولستوي » - كما سبق القول .

وقد اشرنا الى ان « تولستوي » قد قدم لذلك بنبذة عن صاحب هذه الاحاديث وعن الديانة الاسلامية التي دعا اليها الرسول محمد (ص) ، وتحدث عن المعتقدات التي سادت في الفترة التي ظهر فيها بالحجاز ، كما لخص الاصول البارزة للديانة الاسلامية وعرض لحياة النبي وتقشفه وصبره ومعاناته من اجل نشر الدين الجديد ، ويبدي نوعا من التعاطف تجاه النبي وصحابته وينوه بالاسلام وتعاليمه التي تدعو الى احترام الديانات الاخرى ، ويوضح التسامح الذي اشتهر به المسلمون ، بل ان الاسلام امتاز بامور باهرة منها انه اوصى خيرا بالمسيحيين واليهود ولاسيما الاولين منهم : « فقد امر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم حتى أباح هذا الدين لاتباعه بالزواج من المسيحيات واليهوديات مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن ، ولا يخفي على اصحاب البصائر النيرة ما في هذا من التساهل العظيم . . »(6)

وبالطبع فان « تولستوي » ينظر الى النبي نظرة اعجاب برجل مصلح عظيم ، وهي نظرة تتفق مع عقيدة هذا الاديب ومع فكره وموقفه الانساني المعروف : « ومما لاريب فيه ان النبي محمدا من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخرا انه هدى أمة برمتها الى نور الحق وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتفضل عيشة الزهد ، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقي والمدنية ، وهو عمل عظيم لايقوم به إلا شخص أوتي قوة ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والاكرام . . »(7)ان هذه الافكار

التي تأثـر بها « تولسـتـوي » واثـرت فيـه وعـبر عنهـا في آرائـه هذه المتصلة بالاســلام اوبالنبي ، أن هذا المــوقف يلائم مزاجـه واتجـاهـه الفلسفي المعـروف بالتطـور الأخلاقي حتى انه وزع املاكه في آخر حياته وعاش كالـراهب زاهـدا رافضا لحياة المدينة المادية الصاخبة التي يكثر فيها النزاع حول الامتـلاك والسيطـرة مما دفعـه إلى المناداة بالذوبان في الاخرين ،بل دفعه هذا الى التعلق بالــدين والاخـلاق والتسـامي الـروحي ، ودفـاعـه عن المساكين والفقراء وإيمانه بالعدل والعدالة .

ومن هنـا نلحـظ عنـايتـه ، في اختيـار الاحـاديث التي ترجمهـا ، بالاخـلاق والمثـل خاصة تلك التي تعني بالحديث عن المحبة والخير والحق مثـل : « قل الحق وان كان مرا » اومثـل : لايـؤمن احـدكم حتى يحب لاخيـه ما يحب لنفسـه »او« حفت الجنـة بالمكـاره والنـار بالشهـوات » ، اوتلك الاحاديث التي تدعو الى الرحمة والتآخي بين الناس مثل : « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء »(٨)او التي تدعـو الى العطف على الفقراء او الى جهاد النفس او التي ترفض الظلم . . . . الى غير هذا من الاحـاديث النبـويـة الكثـيرة التي تعني بالجـانب الاخـلاقي وتـدعـو الى الفضيلة وتحث على فعـل الخـير وتجنب الشـر باختصـار تلك الاحـاديث الموجهة الى الانسان عامة ، لاالى الفرد شأن الرسالة السماوية التي توجه البشرية بقطع النظر عن اللون والجنس والمعتقد .

وهذه الاحاديث التي اختارها« تولستوي » تؤكد كما اسلفنا تاثره لما جاء فيهـا من دعـوة انسانية ومثل عليا ،وهي كثيرة يمكن الرجوع الى هذا الكتاب لمزيد من الاطلاع على مافيها من معان وافكار سامية حركت هذا الاديب ليـترجمهـا لمواطنيـه بلغتهم حتى يطلعـواعلى ما تزخـر به من حكم وتعاليم شاملة .

وليس غرضنـا هنـا تتبع هذه الاحاديث وشرحها فذلك خارج عن نطـاقنـا ولكننـا اردنـا ان نلفت النظر الى ان الفكر العربي سواء جاء عن طريق الاسلام او الرسول اوعن طريق المفكرين او الكتاب كان له اثره في

مجرى الثقافة الانسانية ، وتلك سمة بارزة في الفكر العربي منذ فجره حتى اليوم .

واذا كنا مطالبين بأن نبحث عما في فكرنا وتراثنا من قيم مضيئة ونحذف ما فيه من افكار سلبية ، فاننا مطالبون اكثر بان نسهم في حركة التاريخ ونضيف اليه عطاءً متجددا كي نشارك في نهر الحضارة الانسانية المتدفق .

---

(1) حكم النبي محمد » (صلعم) - ترجمة سليم قبعين ، مطبعة التقدم - مصر 1912

(2) عبد الله السهروردي كاتب من الهند ، نقل الاحاديث من العربية الى الانجليزية

(3) المرجع السابق ص : 2 ، 3 .

(4) المرجع السابق ص : 26 .

(5) الرجع االسابق ص : 29 .

(6) المرجع السابق ص : 58 .

(7) المرجع السابق ص : 58 .

(8) المرجع السابق ص : 61 .

■ ■ ■

التصغير والبلاغة العربية

- 1 -

عرف الادب العربي معركة فكرية واسعة بين القديم والجديد منذ زمن طويل وتبارت فيها أقلام الادباء والكتاب العرب حقبة زمنية ، ولعلها لاتزال قائمة في بعض مجالات الأدب حتى الآن ، ورغم اختلاف وجهات النظر وتباين المقاييس التي لجأ إليها الأدباء فقد استفاد الادب من تلك الحرب السلمية التي قادها اجتهاد المفكرين والكتاب في فهم القضايا الادبية ، والاجتماعية إذ ساهمت في اثراء الثقافة العربية واغنتها بما يتماشى وأهداف القومية العربية . ومن هذه المعارك الحديث عن البلاغة .

ورغم ذلك ظلت البلاغة كأسلوب خاص في الكتابة أو كأداة لاختيار الاسلوب الادبي الرفيع مرتبطة بالقواعد ، وغمرتها الشواهد النحوية دون أن تعني بالمضمون الفكري .

ولم يعالج هذه القضية كفن من فنون الادب فيما اعلم ، اي واحد من الادباء والكتاب أو كبحث خاص يعطي البلاغة حقها في الادب العربي حتى الآن .

ولابد من مناقشة مشكلة التصغير والبلاغة العربية باعتبارها موضوعا بلاغيا يخاطب الوجدان أكثر منه موضوعا لغويا جافا . لاكته الالسنة ومجته الاسماع .

ونحن اذ نتمنى ان يثير هذا البحث اهتمام الادباء والمفكرين ، وان يبعث في نفوس البعض - على الاقل - مناقشة القضايا الأدبية نرحب بكل رأي ، سواء وافق رأينا أو خالفه

من الاشياء التى تسترعي نظر الدارس للشعر العربي وتشيع في شعرنا بكثرة وجود ظاهرة تصغير الاسماء للتعبير عن خوالج النفس وسوانح الفكر ، الامر الذي يدعو الى التساؤ ل : لماذا يعمد الشاعر الى هذا اللون من التعبير عن احاسيسه ومشاعره وعواطفه ؟؟ وما الغرض الذي يهدف اليه من وراء ذلك ؟؟ ثم نتساءل بعد هذا : لماذا سكت علماء البلاغة عن هذا الموضوع ولم يهتموا به لاقليلا ولا كثيرا في حين أن

التصغير كتعبير فني يصلح ان يكون بحثا بلاغيا طريفا كما يقول أستاذنا الدكتور شكري عياد في احدى محاضراته . فهل اعتبروه بحثا خارجا عن دائرة اختصاصهم وعن مجالهم الخاص ؟؟ .

هذه اسئلة تدور بذهن المتتبع للشعر العربي الذي لا يجد لها جوابا سوى الظن بأن علماء البلاغة اكتفوا بدراسة علماء النحو للتصغير و اعتبروا هذا من موضوعات علم النحو وليس للبلاغة حظ فيها وهذا الظن لا يغني من الأمر فتيلا . . . ذلك ان علماء النحو وان بحثوا هذا الموضوع الا أنهم لم يخرجوا عن مجالهم الخاص وعن دائرة الاعراب والقواعد النحوية من حيث الصيغ وسلامة التعبير ومن حيث الصيغ وسلامة التعبير ومن حيث أوزانه وابنيته وعلاماته . ولعل الازهري في شرح التلخيص يعتبر اكثر علماء النحو الذين تعرضوا لهذا الموضوع بشيء قليل من البحث الذي يعتبر أقرب نوعا ما الى علم البلاغة ، وان أوجز في ذلك ايما ايجاز. فبعد أن عرفه في اللغة والاصطلاح بقوله : (لغة : التقليل ، واصطلاحا : تغيير مخصوص) ينتقل الى اغراضه فيعدها في سرعة ويسردها سردا آليا فيقول :

« وله فوائد وهي ستة : تقليل ذات الشيء نحو كليب وتحقير شأنه نحو رجيل ، وتقليل كميته نحو دريهمات وتقريب زمانه نحو قبيل العصر وبعيد المغرب وتقريب ما فاته نحو فويق المرحلة وتحيت البريد وتقريب المنزلة نحو صديقي . وزاد الكوفيون معنى آخر وهو التحبب نحو بنيه » .

هذا كل ماذكره الازهري عن التصغير من حيث كونه تعبيرا خاصا يقصد به اغراضا خاصة . وسيبويه عالم النحو المشهور لم يتعرض لهذه الأغراض الا تعرضا نادرا دون اهتمام واضح ، وهو في هذا مثل بقية علماء النحو الذين اهتموا بالجانب اللغوي البحت ولم يعيروا جانب المعنى أدنى التفات ، وحتى اذا تعرضوا للشعر فانما ينظرون اليه من زاويتهم الخاصة ، وزاوية اللغة وسلامة الوزن والقاعدة النحوية فمثلا عند ما يذكرون بيت النابغة الجعدي :

كأن الغبار الذي غادرت
ضحيا دواخن من تنضب

عندما يذكرون هذا البيت وامثاله فلا ينظرون اليه الا على اساس معين وهو هل جرى على القاعدة النحوية او خالفها ؟؟ ففي هذا البيت الشاهد في تصغير (ضحى) وكان القياس انّ تصغر بالهاء لانها مؤنثة ولكن صغرت بالالف حتى لا تلتبس بضحوة) .

ولكن هذا يفقد التصغير قيمته ، اذن ويجعله مجرد صورة لفظية لا تزيد ولا تنقص من المعنى . وتجعله قالبا جامدا لا حياة فيه ، في حين أن الشاعر في هذا البيت بالذات لم يخطر بباله بأن تصغير هذا الاسم ، انما هو للفرق بين ضحى وضحوة . انما قصد الى معنى آخر لم يتفطن اليه علماء النحو. . . انه أراد أن يبهرنا بمنظر هذه الفرس التي أثارت هذا الغبار الذي ينعقد سحبا من ورائها وهي تعدو وكأنه دخان كثيف ينبعث من شجر تنضب المعروف بكثرة دخانه . فالشاعر أراد أن يثبت شدة عدو فرسه وسرعة جريها وكأنه أراد أن يركز على صفة الفرس لاعلى ذاتها وحتى ينقلنا من ذات الشيء إلى صفاته ومميزاته الخاصة .

هذه هي المعاني التي ينظر اليها البليغ عندما يدرس ويبحث مثل هذا الموضوع - اي انه يفتش عن المعاني الثانوية ، المعاني الاضافية التي تؤثر على النفس وعلى وجدان الانسان . أما نظرة علماء النحو الى التصغير فهي لاتعدو- الجانب اللغوي الذي يهتم باللفظ نفسه وبالصيغة وحدها دون اعتبار زائد على المعنى كما هو السائد في الأعلام المصغرة مثل : خزيمة سهيل - جبير - كحيل - كليب - قريش. . . الى آخر الاعلام المصغرة التي نجدها في الشعر العربي وهي ترمز الى اسماء القبائل أو الاماكن أو الاعلام الاخرى مثل قول عمر ابن ابى ربيعة :

وغاب قمير كنت اهوى غيوبه
وروّح رعيان ونوّم سمر

فالشاعر لايقصد سوى المعنى الظاهري من القمر الصغير في حد ذاته لأنه في أول الشهر ، كما قصد الى المعنى ذاته في هذا البيت :

وقمير بدا ابن خمس وعشرين
له قالت الفتاتان قوما

فهو لا يرمي الى غرض بلاغي يمكن ان يستفاد من صيغ التصغير وانما يريد ان القمر الذي يشاهده كان صغيرا فهو لم يكتمل او نقص بعد الاكتمال .

وهـذا مابحثـه علماء النحو ولم يهتموا بغيره الا بقدر ما يثبت آراءهم ويقوي براهينهم على سلامة القاعدة أو على شذوذها والخروج عليها فيما يسمى عندهم بالضرورات الشعرية . فالشاعر يلجأ اليه لعبث لفظي او كنوع من تشقيق القول . هذا بايجاز هو رأيهم ونظرتهم الى التصغير وهذا ما تبحثه البلاغة ولا تهتم به الاساليب البيانية والطرق البلاغية .

فالبلاغة أولُ ما تهتم وأول مايعنيها من التعبير او اللفظ انما يعنيها المعنى أو المعـاني الخفيـة التي يقصدها الشاعر . تهتم بملابسات المعنى كما يقول الـدكتـور شكـري عيـاد . وعلى هذا الأسـاس سأتحدث عن التصغير كتعبـير فني يعمـد اليه الشاعر ليثير في نفوسنا خواطر جديدة ومعاني خفية وليضيف الى المعنى الظاهر معنى آخر قد لا نفهمه الا بالتصغير ، وعلى هذا الأساس أيضا يجب ان نفهم التصغير في الشعر العربي على انه اداة فنية يقصد من ورائها الشاعر التأثير والايحاء على السامع والقارىء . والا فان الفهم العـادي له يجعـل الكثـير من شعـر شعـرائنـا ضربا من العبث اللفظي أو نوعـا من الكـلام السطحي المتهـافت الـذي ـ لا طـائل تحته . فالشعـر العـربي كما ذكـرت مملوء بهذا اللون من التعبـير . فيندر جدا ألا نجـد لشـاعـر من شعـرائنا ديوانا قد خلا من أبيات قلت أو كثرت إستعمل التصغـير ، بل هنـاك من أمعن في تصغـير الاسـماء الى حد كبـير كما هو الشأن عند المتنبي .

وسأحاول في هذا البحث أن أبين بعض الشيء الجوانب التي تهم البلاغة في تصغـير الأسـماء ، ولعل الغرض العام الذي يمكن ان تندرج تحته كل الأغـراض التي يقصـدهـا الاديب او الشـاعـر انـما هو التأثـير في وجـدان القـارىء او السـامـع ، أو بعبـارة أخـرى أثـارة الانتباه والاهتمام في نفس المخـاطب عامـة . فالتصغـير فيـه نوع من الايحـاء والمبـالغة التي تثير في أذهاننا تساؤلات لماذا يلجأ الشاعر الى التصغير بدل ان يذكر الاسم كما هو؟ هذا بالاضافة الى أن في التصغير مزية أخرى هي الايجاز في التعبير

عن معاني شتى بلفظ واحد مما يجعل للكلام قوة وتأثيرا لا نجدهما في حالة ذكر الاسم بالطريقة العادية المألوفة .

فالشاعر عنترة في هذا البيت :

عجبت عبيلة من فتى متبدل
عاري الأشاجع شاحب كالمنصل

فالشاعر لا يريد تصغير عبلة لمجرد التصغير ، ولا يريد أن يقول لنا انها صغيرة ، انما يريد أن يؤثر على نفسها ، فيداعبها متغزلا ومتحببا اليها . ويود أن يشعرها بأنها صغيرة وهذا يبعث فيها النشوة ، لأن من طبيعة المرأة وطبيعة النفس البشرية أن تحب الوصف بأنها صغيرة السن . وبالتالي ، فالشاعر يريد أن يقول لها انها لازالت في سن الشباب الغض ومن ثمة فهي مطمع للرجال ، وانها ساذجة غريرة ، وقد اختار الشاعر هذا الاسلوب ليؤثر عليها تأثيرا نفسيا كبيرا فنحن نجد أنفسنا قد غاب عن اذهاننا اسم محبويته ويركز انتباهنا نحو صفة معينة ونحو معنى آخر غير أسمها المعهود في أذهاننا ، هذا المعنى هو صغرها وسذاجتها التي دعتها لأن تتعجب منه ومن مباذله ومن باقي أوصافه الأخرى . وكأنه بهذا يربت على خدها مداعبا حانيا متحببا ، ومثل هذا قول الوليد بن يزيد :

دعوا لي سليمى والطلاء وقينة
وكأسا ألا حسبي بذلك مالا

أو قوله :

شاق قلبي وعناني
حب سلمى وبراني
ولكم لام نصيح
في سليمى ونهاني

التصغير والبلاغة العربية

- 2 -

فالتصغير يعطي الكلمة معنى جديدا أويضيف إليها نوعا من الإشعاع الحي الذي يؤثر على الوجدان وعلى المشاعر ويوحي بأشياء خفية لايعطيها اللفظ العادي للاسم . ومن هنا نجد للكلمات المصغرة مذاقا خاصا وجمالا خاصا .

وهذاالاحساس نفسه نجده في التصغير الذي يقصد منه التقليل تقليل الشيء في ذاته كما هوواضح في قول حسان وهو يمدح الوليد بن عبد الملك .

اذا سقنا الفرائض لم يردها
وصد عن الشويهة والبعير

فغرض الشاعر هنا تعلق بمعنى آخر ، معنى يوحي به اللفظ . هذا المعنى هو التقليل من قيمة وعدد الانعام التي تقدم الى الممدوح لانه لايرضى بها وانما يريد النقود كضريبة من الضرائب ، فالمواشي لاقيمة لها أبدا . لماذا ؟ لأن قوته وبأسه واتساع ملكه تجعله ينظر الى الغنم نظرة المستغني عنها ، المحتقر لقيمتها . ومن ثمة فهذا الملك لايرضي الا يالنفيس من الأشياء . فكأن الشاعر هنا يريد أن يؤثر علينا بهذا الاسلوب حتى نرى رأيه في ممدوحه ونقره على هذا الرأي ومثل هذا البيت قول الشاعر :

واذا سكرت فانني رب الخورنق والسدير
واذا صحوت فانني رب الشويهة والبعير

ويقابل هذه الصفة صفة أخرى ، وهي الكثرة . ولعل بيت حسان ابن ثابت وهو يفتخر بالكرم في قوله :

يظل لديها الواغلون كأنما
يوافون بحرا من سميحة مفعما

لعل هذا البيت يشير الى الكثرة ، فالشاعر يفخر بأن قومه كراما وان القدور التي تنصب للقرى وللضيوف كأنها هذا البئر الملىء بالماء

الغزير ، فغرضه التركيزعلى صفة البئر وعلى ما فيها من ماء كثير ليثبت كرمه وكرم قومه من ذلك كله . ويرى البعض من شراح ديوانه بأن (سميحة) اسم البئر لايقصد اي معنى اخر . وفي رأيي إن في لفظ البئر نفسها مايرمز الى الكثرة فهي من السماحة ، والسماحة هي الكرم وليس الكرم سوى العطاء عن موجود بكثرة . وربما تكون الاسماء الاخرى المصغرة من الاعلام والاماكن وأسماء القبائل قد صغرت لمعنى من المعاني وأصبحت لاتدل الا على ذات الشيء والاسم المعروف فقط والا فلماذا صغرت هذه الاسماء وما الداعي الى تصغيرها .

وقد يستعمل التصغير للكناية ـ كناية عن صفة من الصفات ـ كقول المتنبي في رثاء ابي شجاع :

وصلت اليك يد سواء عنها البازي الأشيهب والغراب الأبقع .

فالشاعر كنى عن صفة الشجاعة وعلو المكانة في هذا الشخص ، كنى عن هذا بالبازي الاشيهب المعروف بمناعته وعلوه البعيد . فالمقصود هنا ليس الصفة المعروفة ـ صفة الشهوبة ـ وانما غرض الشاعر إثارة الانتباه أكثر فأكثر الى ما ترمز اليه صفة هذا الطائر الكاسر البعيد المنال ليدلل على مكانة المرثي من جهة ، وعلى ان الموت لايفلت منه اي كان سواء من ارتفع شأنه أو قل وقد ادى هذا المعنى بإيجاز وتصوير جميل ، تصغير هذه الصفة التي نبهتنا الى ما يقصد الشاعر ان يقوله ويتحدث عنه ، فلو ان الشاعر اقتصر على ذكر الطير وحده أو على صفته وحدها دون ان يلجأ الى التصغير لما أثار اهتمامنا إثارة كاملة

وهناك غرض أخر تتعلق به نفس الشاعر تعلقاً قوياً متصلاً ، وهو مايعبر عنه بتقريب الوقت في نفس الشاعر ، أو بتعبير أدق احساس الشاعر بالزمن القريب من نفسه جداً . كقول المتنبي يرثي جدته :

وكنت قبيل الموت استعظم النوى

فقد صارت الصغرى التي كانت الكبرى

فالمتنبي لايريد ان يحدد الزمن فقط بانه قريب ، فهذا لايصور احساسه وشعوره كانسان موتور . وانما يريد ان يصور شعوره تجاه جدته التي كان يفكر فيها حتى اللحظة الاخيرة التي سبقت الموت . كان يتشوق

الى لقـائهـا ويتلهف لرؤ يتهـا ، فهي لم تفـارق خاطـره ابداً . فإحساس الشـاعـر بالـزمن إحسـاس حاد مفـرط لانـه يبـاعـد بينه وبين جدته التي اختطفتهـا يد المـوت قبـل ان يلقاها فالتصغير هنا انصب كله على الزمن الذي يربط الانسان بالحياة أو يفقده معنى الحياة .

وقـد يقصـد الشـاعـر ان يبعث الرهبة في نفس السامع فيعمد الى التهويل والتعظيم من الامر كقول لبيد بن ابي ربيعة :

وكـل انـاس سوف تدخـل بينـهـم
دويهيـة تصـفـر منـه الانـامـل

فالشاعر هنا يريد ان يهول السامع ويبالغ ويريد ان يحذر الناس من مغبـة ما يأتـون من أعـمال غير نافعـة ، وانهم بذلك معرضون للمصائب التي ستجتـاحهم ، وان المـوت لابـد ان يدخـل بينهم . وقـد استطاع ان يؤدي هذا المعنى بلفـظ التصغـير الـذي هو أدى الى الـزجر والتحذير ، فاللفـظ نفسـه يؤدي هذا المغنى وتصغيره يوحي أكثر بمعاني شتى تجعلنا نحس بالخطـر الـذي يهددنـا ونشعـر بهول وعظم الامـر . وهـذا نوع من التشخيص ، تشخيص الشيء وتصويره تصويراً كاملاً .

وربـما استعمـل التصغـير للتعبير عن شعور التأفف والحنق كقول المتنبي وقد برم بليلة أقلقته وأقضت مضجعه قضاها مسهداً مؤ رقاً :

أحـاد أم سداًس في أحـاد
ليـلتـنـا المـنـوطـة بالـتـنـادي

وهكذا رأينا ان الشاعر في استعماله لهذا اللون من التعبير والتجائه اليـه انـما يريـد ان يعطي اللفـظ معاني كثيرة ، ثم الأيحاء بمعان جديدة لانفهمهـا من التعبـير العادي المعروف . وهذا هو فضل البلاغة ، بلاغة الكلام وميزة الاسلوب البلاغي المؤثر .

وهنـاك ملاحظـة لابد من تسجيلها في هذا الصددوهي أن شعراءنا كثيرا ما يستعملون التصغير في ذم خصومهم وهجاء اعدائهم بصورة ملحوظة واضحـة ، وقـد سجـل هذه المـلاحظـة الاستـاذ الكبـير العقـاد في كتابه مطـالعـات في الكتب والحيـاة عنـدمـا تحدث عن التصغير عند المتنبي اذ يقول :

((فاذن عادة المبالغة في الاستصغار موصولة بعادة المبالغة في التفخيم))
كما يرى ايضا ان صور التصغير ناتجة من هذه المبالغة التي تنعكس من التضخيم والتفخيم الى صور عكسية تماما فيقول :
((ترى صورا صغيرة ضئيلة لاتدري كيف تبالغ في تصغيرها وتهوين شأنها ترى شعور التفخيم قد انقلب الى شعور بالتأفف والاشمئزاز)) .

ورأى الاستاذ العقاد صحيح الى حد ما ، ولكن التصغير في رأيي ـ ليس عادة يلجأ اليها الشاعر الذي تعود المبالغة في التفخيم الى المبالغة في التصغير ، بقدر ما هو تعبير عن حالة نفسية وعن شعور غريزي في نفس الانسان عامة . شعور يدفع الشخص الى هذا النوع من التعبير ليرد على من أساء اليه وأهانه . أو ليظهر له انه ليس في المقام الذي يسمح له بان يسمو اليه ، فالشعور بالكراهيه يدفع المرء الى التعبير عن هذه الكراهيه بتعابير تصور هذا الشعور ، فالذي يريد أن يعبر عن مقته أو اشمئزازه من شيء ما ، عليه ان يلجأ الى أسلوب خاص معين على العكس من الذي يريد التعبير عن الاستحسان والمدح . والاديب أو الشاعر يستعين دائماً وأبداً بما يحقق له تصوير شعوره وإحساسه أجمل وأقوى تصوير ، فيلجأ إلى التصغير كتعبير عن هذا الشعور لانه يعينه على التصوير ويحقق رغبته في التعبير عنه بالاضافة الى التعابير والاوصاف الاخرى التي تعطي الصورة حيوية وتأثيراً ، فالتصغير في حد ذاته يدل على قلة الشيء وصغره فإذا أضيف اليه مايدل على غرض الشاعر من التعابير الاخرى تكون الصورة قد اكتملت ونضجت وأصبحت وكأنها حقيقة من الحقائق وعلى القاريء ان يصدقها ويسلم بها . فالشاعر مضطر لهذا الاسلوب . مضطر للتصغير لانه اداة فنية من ادوات التعبير ، والا لما اصبحت له قيمة ، أو فائدة . فلو كان الشاعر يعمد اليه بحكم عادة المبالغة لما كان له التأثير المطلوب من استعماله مثله مثل التعابير الفنية والصيغ البيانية الاخرى التي يتطلبها المقام ويستدعيها حال كل من الشاعر والمخاطب نفسه .

وهذا ما نحس به في الشعر الهجائي لدى شعرائنا ، فالمتنبي في قوله:

ونــام الخــويــدم عن ليــلنــا
وقــد نام قبــل عمــى لاكــرى

أو قوله :

أخــذت بمــدحــه فرأيــت لهوا
مقــالي للأحــيـمـق يالئــيـم

فالشـاعـر هنا انما قصد ان يسخر من كافور الأخشيدي لانه مدحه دون ان يفـوز منـه بمبتغـاه ، فرسم له هذه الصورة في غاية من الدقة وفي غايـة من القبـح عنـدما وصفه بالخويدم أو الاحيمق . انه يركز على صفة الـذم فيـه حتى يجعـل النـاس يسخـرون منـه ومن ملكـه وجاهه وقوته ، وشعوره بالاحتقار هو الذي أملى عليه أن يقول أيضاً :

أولــى الــلئــام كويــفــر بمــعــذرة
في كل يوم وبــعض الــعــذر تنــفــيــذ

أو قوله :

ثويبية لم تدر أن بنيها النويبي دون الناس يعبد في مصر

فهـو هنـا يبلغ درجة عالية من السخرية والاستهزاء بكافور الذي يعـيره بالسـواد ، سواد أمـه وسـواده . ولم يكتف بالـوصف فقـط فصفـة النـويبي تكفي للدلالـة على السواد بل أنه صغرها ليمعن في تحقيره وذمه وليـزيـد بذلـك من انحطاط شأنه وقيمته . وان ملكه وسلطانه لايغير من الامـر الـواقـع شيئاً . واحساسه بضعة كافور ومقته له جعله يصغره ثلاث مرات في البيت الواحد مما يجعلنا ندرك شعور الشاعر الجارف بمقت كافور واحتقاره له ، وانه يحتقر ملكه بالتالي .

ومن هذا النـوع مانجـده في هجـاء الشعراء بعضهم لبعض كقول

جرير يهجو الأخطل :

إن الأخيطل خنزير أطاف به
احدى الدواهي التي تخشى وتنتظر

او قوله :

فغض الطرف انك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فالشاعر لم يكتف بأوصاف الذم والتحقير وانما عمد الى التصغير ليجسم احساسه بالكراهية واحتقاره لشأن المخاطب حتى نحس بأن الشخص والصفة التي ذم بها أصبحا كالشيء الواحد وهذا أدعى الى المبالغة والتصوير وهو ما يعبرون عنه بالهجاء المقذع .

ولكن التصغير يبلغ درجة نهائية في رسم الصورة وتلوينها وتجسيمها عندما يصحبها الشعور بالاحتقار كقول المتنبي :

أذم الى هذا الزمان أهيله
فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

أو قوله :

في كل يوم تحت ضبيتي
شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

أو قوله :

من لي بفهم أهيل عصر يدعي
ان يحسب الهندي فيهم باقل

فهذه صورة من الاحتقار المتناهي الذي يبلغ الذروة في التصوير فالشاعر يعبر عن هذا الشعور القوي بهذه الاوصاف وبالتصغير نفسه . فأهل زمانه وعصره من علماء وشعراء كلهم جهلة حمقى لئام ، فتصغيره لهم إنما هو تعبير لحالة نفسية يحس بها الشاعر تجاه الناس وتجاه الذين يرى انهم لايفهموه وأقل من ان يتساموا الى مقامه ومكانته الرفيعة ، وقد يكون

هذا ادعاء منْ الشاعر ولكنه ادعاء فرضة عليه شعوره الطاغي بالمرارة وبالحقد على الناس وفرضه عليه شعوره بأنه أقدر منهم وأكثر فهما . ولولا التصغير لما أحسسنا بكل هذا من الشاعر ، ولما استطاع هو نفسه ان يفرغ مافي نفسه من أحاسيس ومشاعر من ناحية وليظهر أنه مغبون في هذه الحياة وبين هؤلاء الناس من ناحية أخرى،ومن ثمة فهو مغذور في ثورته عليهم واحتقاره ومقته لهم .

وخلاصة هذا كله ان التصغير يعتبر لونا من ألوان التعبير الفني ونوعا من الادوات التي يستعين بها الاديب أو الشاعر على تصوير مشاعره وخلجات نفسه

واعتقد أنه لو تفرغ المختصوْن في هذا الفن وتتبعوا اقوال شعرائنالوجدوا كنوزا طافحة بشتى الصور يمكنها أنْ تضيف لعلم البلاغة شيئا جديدا من القول الجميل الذي يستهدف المتعة الذهنية والعاطفية ، هذه المتعة التي هي مطلب كل فن جليل جميل .

■ ■ ■

في ذكرى الشهيد رضا حوحو

توافق هذه الايام ذكرى الشهيد احمد رضا حوحو الذي استشهد برصاص الاستعمار فداء للكلمة الشريفة وللجزائر العربية الحرة .

وحين نذكر (حوحو) ونضاله ، نذكر من خلال ذلك نضال الجزائر من اجل الحرية والاستقلال . . نذكر معه الآلاف المؤلفة ممن سقطوا في ميدان الشرف ليؤكدوا ان القيم والمثل العليا لاتموت ، وان المعاني الانسانية السامية لاتطمسها الاباطيل ،

ولد (حوحو) في عام 1911 . ببلدية سيدي عقبة بالجنوب الجزائري وتلقى تعليمه الابتدائي بها ، والثانوي بمدينة سكيكدة . وفي سنة : 1934 . هاجر الى الحجاز ليواصل الدراسة هناك حيث أن العربية وتعليمها في ذلك الوقت كان من الصعوبة بمكان بل كان جريمة يعاقب عليها كل من تحدثه نفسه بذلك ، وبقي في الحجاز حتى سنة 1945 . ثم سافر منها الى مصر حيث قضى بها عاما ، ثم عاد بعد ذلك الى الجزائر .

وقد بدأ بعد رجوعه الى الوطن بنشاط أدبي وثقافي ملحوظ فظهرت مقالاته وقصصه في مختلف الصحف والمجلات الوطنية والعربية ، كما بدأ في اصدار كتب من تأليفه كان أولها (غادة أم القرى) التي صدرت في عام 1947 . أما آخر كتبه فهي مجموعته القصصية (نماذج بشرية) التي نشرت عقب قيام الثورة ، كما ان له مؤلفات اخرى نذكر منها : مع حمار الحكيم ، صاحبه الوحي وقصص أخرى ، ولم يقتصر نشاطه على تاليف الكتب بل تعدى ذلك الى الميدان الصحافي والعلمي ، كما رأس تحرير جريدة الشعلة كما شغل منصب السكرتير العام لمعهد عبد الحميد ابن باديس بقسنطينة . ليس هذا فقط بل ان نشاطه شمل الجمال والغناء ايضا فقد كون فرقة (المزهر) الموسيقية حيث دأب على توجيه الشباب توجيها فنيا ، بالاضافة الى انه ترجم وأقتبس قصصا ومسرحيات أوربية.

ولقد كان يهوى السفر ومشاهدة البلدان ، فطاف بالكثير من بلاد العالم مثل فرنسا . وايطاليا . وروسيا . وتشيكوسلوفاكيا وغيرها . فوق

انـه طاف بالكثـير من البلدان العربية . وقد سجل انطباعاته ومشاهداته في رحلاته هذه في سلسلة مقالات نشرها بجريدة (الشعلة) .

هذه التجـارب والخبرات كلهـا غذت قلمـه واعطتـه مادة خصبة للكتـابـة التي تنـوعت بين القصة والمقاله النقدية الساخرة والمسرحية ذات الهـدف والمضمـون الاجتـماعي ، وقـد تأثـر في ذلـك ـ خاصـة في المسرحيات ـ بتوفيق الحكيم في اسلوبه وحواره ونكته وفكاهته الساخرة ، الى حد انـه استعـار منـه فكرته الرمزية حمار الحكيم ، فألف كتابه سنة . 1953 . (مع حمار الحكيم) وعلى لسان الحمار اجرى الكثير من الحوار الذكي اللاذع ، وعالج العديد من قضايا المجتمع التي كان يصعب حينئذ ان تعالج بصراحة وبلا رمز

والـواقـع ان حوحـو قد وجـه اهتـمامـه الى المجتمع وعيوبه مسلطا سوطه على هذه العيوب فهو يتميز بالقدرة على تشريح الظواهر المرضية في المجتمـع ولكن الهـدف والغـرض هو بنـاء مجتمـع سليم يخلو من الانحرافات والتخلخل .

ولعـل له ميـزة اخـرى هي انـه ـ بالـرغم من تشاؤمه البالغ احيانا والـذي عبر عنـه (يضـع على عينيه منظارا قاتم السواد) بالرغم من هذا فهو لا ينفي الخير في الانسان حتى الشرير منه ـ فهو يؤمن بان الانسان فيه خير كثير حتى ولو كان مظهره يدل على الشر أو الانحراف . . ويمكن أن نطلق عليه : فلسفة (حوحو) التي نحسها في الكثير من كتاباته .

وقد ساعدته مقدرته على إجراء الحوار الساخر في أن يعبر عن آرائه وافكـاره هذه تجاه النـاس والمجتمـع ، هذا الحوار الذي يبسط فيه الافكار المجـردة او التجـريدية حتى تصبح مستساغة سهلة الفهم والتأثير ، وعن طريق هذا الحـوار ناقش قضـايـا كثـيرة ومتنـوعة . . ناقش قضية الادب والادبـاء ومـدعي الادب والثقـافة في مقالة (فقاقيع الأدب وأدباء المظهر) مثـلا . ونـاقش المظـاهر الخداعة والباحثين عن الشهرة الكاذبة والالقاب الجوفاء الخادعة في ((الاساتذة والـشخصيات المـرتجـلة وغيرها)) .

أمـا قضيـة المرأة وتربيتها ومكانتهافي المجتمع فقد كرس لها الكثير من قصصه ومقالاته .

ولم يفته ان ينـاقش قضيـة الشـرق والغـرب التي عالـج بها موقف المفكـرين وكتـاب الغـرب منـا ، في كتابه مع حمارالحكيم ، ولنستمع الى شيء من هذا الحوار :

ـ قال لي حمارالحكيم : ـ ما هو قولك في كتاب الغرب على وجه العموم؟

ـ كغـيرهـم من الكتـاب يجيـدون تارة ويسفون. أخـرى . . فهم بشـر يعتريهم النقص ويستولي عليهم الغرور . .

ـ لكن ماالذي تاخذه على الكاتب الغربي . . ؟

ـ تعصبه ضد الشرق وعدم فهمه له .

ويستمـر حوحـو في نقاشه لموقف هؤلاء المتعصبين ممن يجهلون الشرق وثقافته ويحكمون حكم كتاب الغرب على حضارتنا وثقافتنا وقيمنا والحقيقة اني لم اتعرض الى حوحو كرائد للقصة لانه سبق ان تحدثت عنه تفصيلا في دراستي: للقصة العربية الجزائرية التي نشرت تباعا . . .

. . . وقلت فيهـا يكفي (حوحو) انه مهد الطريق للقصة الاولى التي اضاف اليها بعده كتاب آخرون إضافات هامة . .

بقيت كلمـة أخـيرة لابـد منهـا وهي أن (حوحو) قد ترك آثارا أدبية مطبـوعـة أو تحت الطبـع أو مخطوطة ، هي تراثنا جميعا تحتاج منا الى دراسة وجمع والعمل على طبع مالم يصدر منها واخراجه الى النور .

ومسئـولية هذا كله يتحملها الكتاب والمشرفون على اجهزة الثقافة ويتحملهـا اصدقاؤه ومن كانت لهم به صلة وثيقة ، وانه لمن المؤلم حقا ان تمر عشر سنوات كاملة على استشهاد (حوحو) ثم لايذكره احد ولا يكتب عنه حتى اصدق اصدقائه فهل هذا من الوفاء في شيء ؟ .

تحية الي (حوحو) والى قلمه الذي ناضل من اجل شرف الكلمة حتى النهاية . . . . . .

■ ■ ■

في ذكرى مالك حداد

في هذا المساء أقف معكم وقفة وفاء وتحية لذكرى أخ وصديق عزيز فارقنا منذ عام مضى ، هو الاديب المرحوم مالك حداد ، واذا كنا نفعل ذلك في اتحاد الكتاب فذلك لانه المكان الذي عرفناه فيه عن قرب ولمسنا مواقفه النبيلة وكفاحه لتثبيت أقدام هذه المنظمة الثقافية في اتحاد الكتاب ادركنا عمق انسانيته وخلقه الكريم وانفعاله الصادق من اجل الوطن والانسان العربي بل والانسان المعذب أينما كان .

ويحار المرء من اين يبدأ ؟؟

أيبدأ بمالك حداد الانسان، أم المناضل ، أم الفنان؟لن ننسى ابدا حضوره الدائم بيننا ، لم يمنعه المرض من ان يكون معنا في كافة نشاطاتنا مشاركا ومتابعا ومحاولة ازالة العقبات وحل المشاكل التي طالما اعترضت سبيل الاتحاد منذ تأسيسه عام 1974 حتى فارقنا الى غير رجعة .

لن ننسى إحساسه بزملائه وسلوكه نحوهم الذي بقدر مايكشف عن نفس مرهفة حساسة فهو يكشف ايضا عن خلق رفيع وانسانية عميقة كان يقدر الاخرين ، يقدر ظروفهم يحترم مشاعرهم وعواطفهم وآراءهم وأفكارهم حتى لو اختلفوا معه ، أجل ، لم يدفعه اختلاف البعض معه في الرأي الى ان يغير سلوكه أو يقطع حبل مودته .

لن ننسى موقفه من قضية الصحراء الغربية ومشاركته بقلمه لابنائها المكافحين بل وبذهابه إلى الجبهة اكثر من مرة مع وفود الصحفيين والكتاب الاجانب . . . فعل ذلك رغم المرض العضال الذي كان يمص منه الحياة رويدارويدا ، كان كل همه ان يرفع صوت هؤلاء المناضلين وان يساهم قدر جهده في تدويل قضيتهم العادلة .

ولم يكن هذا غريباً عليه هو الذي طالما ساهم في النضال من أجل حرية الجزائر واستقلالها هو الذي كتب وغنى للثورة الجزائرية اعذب الاناشيد ، هو الذي يقول في مقدمته لديوانه « الشقاء في خطر » :

((لاشيء أجمل من السلم . . .

ولكنـه . . لكي يصبح التـاريـخ قصص بطولـة ، لكي يصنع كل انسـان تاريخـه بيده ، علينا ان نختار بين القيلولة الهادئة الى جذع شجرة وبين انفجار اغنية عنيفة . .))

ولقد اختار ما اختاره شعبنا ، النضال ، الجبل الذي وجد يقينا انه على حق فهتف قائلا :

قفوا ايها الرفاق

إن الجبـل لعلى حق . . .

. . لن ننسى نظـرتـه لقضـايا العروبة والانسان العربي التي ترتبط بكل ما سبق ، فكما احس بكفاح ابناء الصحراء الغربية أحس بقضية فلسطين ، الـوطن الضـائـع السليب ، بل ان فلسطـين كانت تسبب له أرقـا دائما ، وحـين سجـل هذا الارق في فنـه أدركنا عمقه وأصالة حسه القومي الذي يجعل من فلسطين دارا له ، وان مأساته هي مأساتها ، وذلك لانه ـ حسب قولـه ـ « عربي حتى المـوت » بتلك العفـويـة والحـرارة صاغ قصيـدتـه الطويلة « فلسطين داري » التي يقول فيها :

وكأنني هناك في داري
في داري ، في فلسطين
والاهانة في داري
الغراب نفسه
الذي اهان سمائي البارحة في قسنطينة
وسخر من حينا
وسخر من قبورنا
ولكنني هناك في داري
في فلسطين .

* * *

في داري ، لاني عربي
عربي حتى الموت
عربي في العيون
عربي في صدري
عربي نشيدي
عربي طائر النورس
عربية الغابة عندما تلمع فيها ديدان الربيع
عربي الخبز الطيب ، عربية « العاصفة »
عربي هذا الفجر على حدود الليل
لأن الإهانة في داري . . في تلك الزاوية من الكون
تلك الزاوية من بيتي الذي القى بي الى الشارع .
سأرجع الى داري على عودة الفجر
سأرجع الى داري بعد شتاتات طويلة .)).

وهكذا نحس صدق مالك حداد في تعبيره عن عروبته وانتمائه الى أمة كبرى ، الجزائر قطعة منها وفلسطين قطعة أخرى . . . ومثلما ينفعل الشاعر للفدائي الجزائري ، ينفعل ايضا « للعاصفة » التي تنشد تحرير فلسطين .

والواقع ان لقائي بمالك حداد الفنان الشاعر سبق معرفتي به بفترة طويلة ، وقد سجلت رأيي فيه آنذاك وحين عرفته تأكد لي صدق رؤيتي له بل ازددت اعجابا به وتقديرا لفنه ، لقد عرفت فيه صدق الاديب مع نفسه ومع واقعه ومع تجاربه الخصبة ، وعرفت فيه تلك الغيرة الشديدة على العروبة والمرارة التي عاشت تملأ نفسه من انه سجين لغة اجنبية ، من انه معقود اللسان ، يتيم التعبير ، لايقوى على الغناء لإنه محروم من شدوه الطبيعي ، بلغة ابائه واجداده وهذا ما عبر عنه في قوله لصديقه الشاعر الفرنسي . بلى ياأراجون لو كنت اعرف الغناء لتكلمت العربية وحين يصحب معه ولده الى الاتحاد ، يشير اليه قائلا له : هذا هو

انتقامي ، لان ابنه يدرس العربية مع ابناء جيله من الاطفال الجزائريين .

كان هذا الخط القوى الشفاف الذي يربطه باللغة الأم هو سر مأساته التي عبر عنها فنا مبدعا ، شعرا ورواية ، وهو شيء يميزه ويطبع ادبه بطابع خاص يدلك عليه حتى ولو لم يوقعه .

يقول في مقدمة روايته «سأهبك غزالة» :

«اللغة الفرنسية حاجز بيني وبين وطني اشد واقوى من حاجز البحر الابيض المتوسط ، وانا عاجز عن ان اعبر بالعربية عما اشعر به بالعربية ان الفرنسية لمنفاي »

ولذا فهو يرفض ان يسمى اديبا او شاعرا رغم شاعرية ما كتب ورغم هذا الثراء الفني في نثره وشعره معا ، يقول في احدى قصائده :

ابي ، يا ابي
لماذا حرمتني
تلك الموسيقى المنسوجة من لحمي ودمي ؟

ويقول مخاطبا أمه الرمز ، اى الجزائر :

أماه يامّة
هل يمكن ان يكون أسمك **ماما** ؟

كان يكتب ، على حد قول احد الباحثين وكانه ينتقم من اللغة الفرنسية أو يعذب نفسه بها

لن ننسى لمالك حداد هذه النفحة العربية الأصيلة في أدبه وإن لم يخط حرفا عربياً واحداً

وان هذا الاحساس باللغة الام يمتزج لديه بالاحساس بعذاب وطنه ومأساة الجزائر تحت وطأة الاحتلال ، تلك المأساة التي وعاها مبكرا ثم عاشها بكل دفقة في حناياه ، وقد قال للدكتور سامي الجندي في حديث بينهما في دمشق ابان الثورة : «لقد ولدت في 8 ماي 1945 سنة الشقاء ، سنة المجزرة الرهيبة . .

اجل ان 8 ماي هو يقظة الشاعر التي لم ينم بعدها الا منذ عام فقط . فقد كانت الاف الضحايا التي سقطت برصاص الاستعمار الفرنسي في ذلك اليوم المشؤوم ثمنا غاليا لهذه اليقظة ولكنها اكدت للشعب الجزائري

ان السبيل الوحيد للخلاص هو الكفاح المسلح ولا سبيل سواه ، وهذا ما سجله مالك حداد في شعره بقوله :

ـ ايحتاج ألانسان ان يدفع كل هذا الثمن لكي يفهم ؟
ايحتاج لكل هؤلاء المعلمين ليتلقى هذا الدرس ؟
ولكل هؤلاء الموسيقيين ليحب الموسيقى ؟؟

وحين سئل عن ثورة نوفمبر العظيمة قال : «لقد جددنا بها معنى كلمة انسان . . »

ذلـك انـه كان يحس بالثورة وبالفداء وبالجبل احساسا عارما ، ورغم مأساوية ما كتب ورغم رنة الحزن والمرارة التي ينضح بها فنه فقد كان على يقـين من ان الفجـر قادم ، وان الجـزائـري الثائر يصنع تاريخه بنفسه ولذا صعـد الجبـل ولن يهبـط مرة أخرى . فالقمم بانتظاره بعد عذاب طويل . يقول :

في كل الدروب التي تقود الى النهار
اراني ابحث عن اسمي ابدا بين شواهد القبور
عجبا . . كيف يفتح الماضي المرعب ابوابا لغد جميل
إني أحلم دائما بغد كالاساطير . . .

* * *

وبعد . . . .

ان السنـين ستمـروتتوالى دون ان ننسى مالك حداد ، بل سيبقى حيـا معنـا بكـل تلك القيم والمعـاني التي يمثلهـا مفكراً وأديباً وشاعراً ومنـاضـلا ، واملنـا في ختـام تلك الكلمة الموجزة التي هي مجرد تحية وباقة متـواضعـة من الـزهـر على ضريح هذا الصديق الذي ذهب عنا في رحلة طويلة . . اقـول املنـا ان يستمـر هذا التقليـد وهـو الاحتفاء بذكرى من فارقونا بعد ان قدموا لهذا الوطن كل ما استطاعوا تقديمه من امثال مالك حداد . . على ان نعمق مدلـول هذا الاحتفـاء ليصبـح اكثـر ثراء واكثـر فاعلية باعادة طبع مؤلفات هذا الاديب التي ترجمت الى العربية ، وترجمة باقي منهـا باللغـة الاجنبية وكذلك دراسة فنه وتقييمه في اطار المرحلة التي عبر عنها وبذلك نكون قد قمنا فعلا بتكريمه في ذكراه . .

■ هذه الكلمة ألقيت في اتحاد الكتاب الجزائريين في الذكرى الاولى لوفاة الأديب مالك حداد

الفهرس

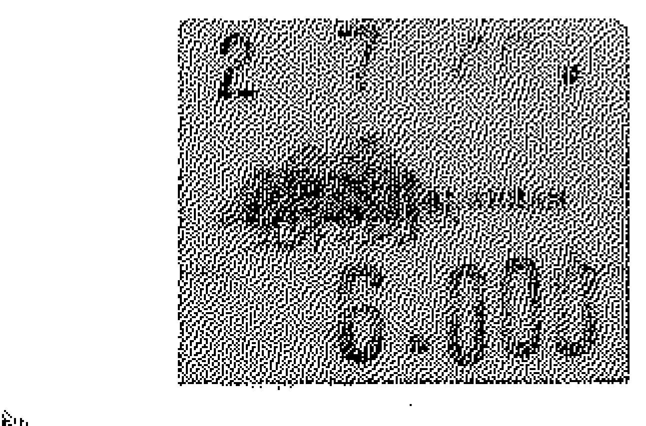
صدر عن الكرمل

أشياء شخصية		د . عبد السلام العجيلي
الرواية في الادب الروسي		د . سامي الدروبي
سامي الدروبي		احسان بيات الدروبي
عبد الناصر والاسلام		سليمان الحكيم
الخطر الناصري		سعيد حبيب
مصر السادات « رؤ ية ناصريه »		سليمان الحكيم
اتفاقيات كامب ديفيد		د . حامد عبد الله ربيع
مشكلات الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية في بلغاريا		ترجمه : د . عبد الله حنا
دروب القراءه		تأليف رالف ستيجر ترجمه بشير النحاس
الحيوان في قصص الاطفال		عربي العاصي
زهرة الصندل	رواية	وليد اخلاصي
الفاتح الاكبر	رواية	محفوظ ايوب
الحنظل الاليف	رواية	وليد اخلاصي
تضاريس لوجه غير باريسي	شعر	ربيعة الجلطي
أولمبياد اللغة المؤجلة	شعر	أسعد الجبوري
النزيف	شعر	محمد ابراهيم العمّار
عندما تحرق الحروف	شعر	فتحي الكوامله
الحركة الصهيونية في ادبيات لينين		محمود عباس
مسائل الصراع العربي الصهيوني		إبراهيم مصطفى المحمود

يصدر قريبا

نجوم بلا ضياء	مجموعة قصيصية	نادر السباعي
خارج الحياة	رواية	محمد نديم
التويزا	رواية	الزاوي أمين
الشاعر جلواح من التمرد الى الانتحار		د. عبد الله ركيبي
إفلاس النظرية الصهيونية	«طبعة ثانية»	نصر شمالي
كتب الاطفال في البلدان النامية		آن بيللوسكي ترجمه بشير النحاس

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ـــ 1986



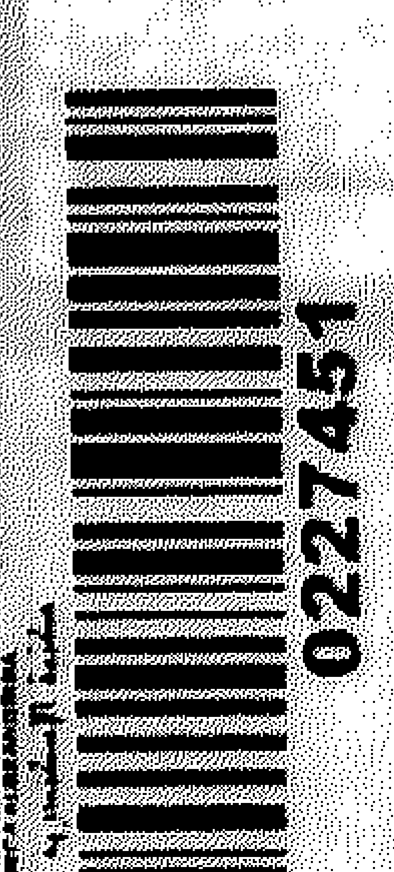


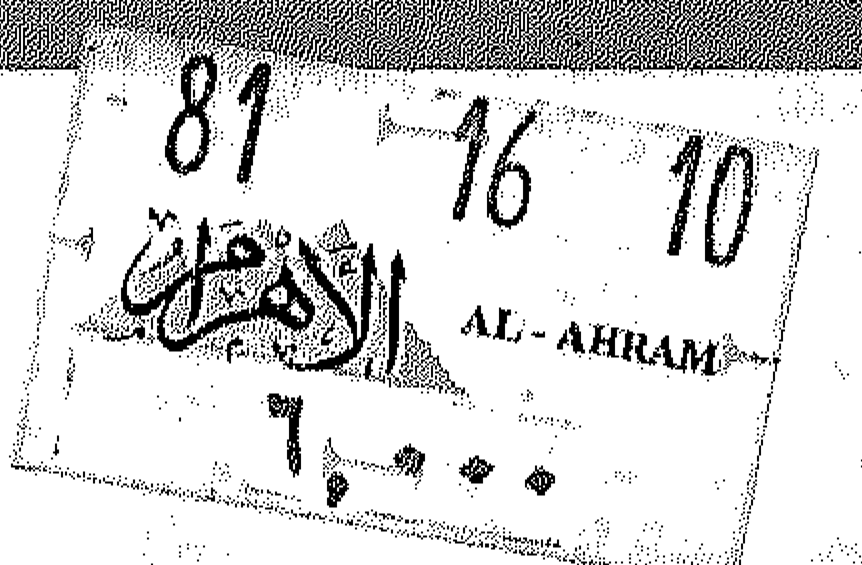
هذا الكتاب

إن الاستعمار بعد ان خرج بجنوده اراد ان يبقي فكره وتبقى ثقافته وآرءه . ولانغالي إذا قلنا إن هذه ظاهرة عامة في كافة البلدان التي ابتليت بالاستعمار في العصر الحديث ، لكنها في الجزائر والمغرب العربي عامة ، اتخذت طابعا منظما مدروسا تسنده جهات رسمية تخطط وتعمل له بدأب لابقاء الفكر والثقافة الاجنبيتين بدعوى التفتح والمعاصرة ، وما الى ذلك من الصيغ التي تحمل في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب . . . . . !

ولقد صمدت الجزائر لهذا كله وعملت ومازالت تعمل لتتحرر فكرة وثقافة ، وتعيد الاصالة الفكرية والثقافة لتاريخنا وحضارتنا العربية والاسلامية ، وتواجه هذا الغزو الثقافي لانها تعي ان هذا هو الطريق الصحيح لتأكيد الهوية الوطنية والانتماء القومي .

مـــن ا





السعر في الجزائر : 15,98 د.ج